التحول للإسلام والارتداد عنه في مصر والشام في عصر سلاطين المماليك

(٦٤٨ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)

الدكتور/ يسري أحمد عبد اللّه زيدان

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المساعد

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

تمهيد:

اختصت مصر والشام بالعديد من الدراسات والأبحاث التي تناولت الكثير من الظواهر والأحوال والحوادث المختلفة في العصر المملوكي، ولم يحظ موضوع التحول للإسلام والارتداد عنه في مصر والشام في الفترة السابقة بدراسة تبين حالات هذا التحول وأسبابه وثماره ونتائجه، وتبرز ما شهده هذا العصر في مصر والشام من حالات وحوادث عديدة متكررة تخلى فيها أصحابها عن عقيدة الإسلام، وتلقي الضوء على موقف الدولة المملوكية من هذا التحول، وتكشف عن الضوابط التي التزمتها الدولة المملوكية في التعامل مع هؤلاء المرتدين والوقوف على أدلة هذا الارتداد المستحق للعقوبة التي أخذت بها هذه الدولة ونفذتها في هؤلاء المرتدين، على أساس أن هذه الردة لم تكن تعبر عن موقف عقائدي بقدر ما كانت تعبر عن مواقف سياسية دينية تحقق لأصحابها بعض الأهداف والغايات، وإلا لاكتفى هؤلاء بالارتداد دون أن يسعوا إلى الدولة معلنين عنه، طالبين تنفيذ العقوبة عليهم، مصرين عليها، فرحين بها.

من هنا برز اهتمامي بهذا الموضوع لاستجلاء الحقيقة حول التحول للإسلام والارتداد عنه في مصر والشام في عصر سلاطين المماليك بكل حيادية وموضوعية كاملة، اعتماداً على الروايات والنصوص التاريخية الخاصة بالتحول للإسلام أو الارتداد عنه.

وجاءت مباحث هذا الموضوع كالتالي:

المبحث الأول: تحول بعض أهل الذمة للإسلام وأسبابه.

المبحث الثاني: تحول بعض الفرنجة للإسلام وأسبابه.

المبحث الثالث: حوادث ردة لذميين سابقين.

المبحث الرابع: حوادث ردة منسوبة لبعض المماليك وبعض موظفي الدولة.

المبحث الأول: تحول بعض أهل الذمة للإسلام وأسبابه

حدث تحول من كثير من أهل الذمة للإسلام في مصر والشام في عصر سلاطين المماليك يدل على ذلك تناقص مقدار الجزية، وهو ما أشار إليه القلقشندي[1] ، والمقريزي متصلاً بمصر[2]، وهو ما دلت عليه الروايات التاريخية في مصر والشام، وما لاحظه بعض المؤرخين المحدثين[3] .

وكان هذا التحول في بعض الأحيان يتم عن قناعة تامة بالإسلام، ويحدث أحيانًا هربًا من إحدى العقوبات، ويكون أحيانًا بغرض الوصول إلى بعض المناصب أو الاحتفاظ ببعض الوظائف من بعض موظفي أهل الذمة في الدولة المملوكية أو لغير ذلك من أسباب دعت بعض الذمة للإسلام.

١ – التحول للإسلام اختيارًا وطواعية:

تحولت فئات عديدة من أهل الذمة إلى الإسلام باقتناع تام بعقيدته وهديه وشريعته، وبكل طواعية واختيار وبدون أي إجبار أو إكراه أو طلب لوظيفة أو فرار من أية عقوبة أو طمعًا في أي شيء. وكان للدعاة المسلمين من الفقهاء وغيرهم دور في هذا الإسلام الطوعي الناتج عن الاقتناع الكامل به بعد مناقشات ومحاورات تتم بين الذميين والفقهاء، أو بعد خطب متتالية يقوم بها أحد الخطباء في بعض المساجد القريبة من بعض الكنائس؛ ومن ذلك أن الحسن ابن علي بن يوسف بن هود (ت٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م) نزيل دمشق من بلاد الأندلس

---

(١) راجع القلقشندي: صبح الأعشى الهيئة المصرية العامة للكتاب، جـ٣ ص٤٥٨ .

(٢) راجع المقريزي: الخطط جـ١ ص١٠٦ طبعة بولاق.

(٣) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية، ص ١١٣، وقاسم عبده قاسم: اليهود في مصر من العربي حتى الغزو العثماني، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ص ٢٤ .

كان يقرئ اليهود بدمشق الفلسفة، فأسلم على يديه جماعة منهم[١] . كذلك أسلم أحمد بن المغربي الطبيب اليهودي (ت٧١٨هـ/ ١٣١٨م) نزيل القاهرة في أيام الأشرف خليل بن قلاوون سنة تسعين وستمائة وتسمى «أحمد»[٢] .

وقد اشتهر ابن تيمية بمجادلاته لأهل الذمة، فأسلم على يديه عددٌ من نصارى ويهود دمشق، منهم: الطبيب بهاء الدين عبدالسيد، إسحاق بن يحيى (ت٧١٥هـ/ ١٣١٥م)، وأسلم على يدي شيخ الإسلام ابن تيمية «لما بَيَّن له بطلان دينهم، وما هم عليه، وما بدلوه من كتابهم وحرفوه من الكلام عن مواضعه، وقد أسلم على بصيرة، وأسلم على يديه كثير من قومه، وغيرهم، فكان مباركًا على نفسه وعليهم، وكان قبل ذلك ديان اليهود، فهداه الله تعالى»[٣]. وأصبح بعض من أسلم من الفقهاء الكبار، ومنهم إبراهيم بن داود بن عبدالله الدمشقي (ت٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م) الذي تفقه على مذهب الشافعي وسمع الحديث الكثير، وقرأ عليه ابن حجر[٤]. وممن أسلم على يدي ابن تيمية أيضًا بدمشق توما بن عبد الله النصراني[٥]. كما اشتهر العلامة المصري إسماعيل بن أبي الحسن (ت٨٣٤هـ/ ١٤٣٠م) بمحاوراته للنصارى، وأسلم على يديه بعضهم بمصر بعد عدة مناقشات[٦]. كذلك أسلم على يدي الشيخ أحمد ابن حسن بن علي (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م) بمصر ثمانون ذميًا[٧] . كما كان الخطيب محمد بن علي الشافعي القاهري (ت٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م) مشهورًا بتناول عقائد أهل الذمة بمسجده بالقرب من كنيسة بحارة زويلة[٨] بالقاهرة[٩] .

(١) راجع الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ١٢، باعتناء رمضان عبد التواب ص ١٥٧ وراجع ص١٥٦-١٦٠، والمقريزي: المقفى الكبير جـ٣، تحقيق: محمد اليعلاوي ص ٤٢٨، وراجع من ٤٢٧- ٤٣٢، وابن العماد: شذرات الذهب طبعة دار الفكر - بيروت، جـ٥ ص٤٤٧ . (٢) المقريزي: السلوك جـ٢ قسم ١ ص١٨٧ .

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٤ مجلد ٧ ص٤٥٩ .

(٤) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق: عدنان درويش، جـ٣ ص٥٥٨، دمشق .

(٥) النويري: نهاية الأرب بتحقيق مصطفى حجازي، مطبعة دار الكتب، جـ٣٣ ص٢١٢-٢١٣ .

(٦) راجع البقاعي: عنوان الزمان، تحقيق: حسن حبشي، مطبعة دار الكتب المصرية، جـ٢ ص١٣٥-١٣٦ .

(٧) راجع السخاوي: التبر المسبوك في ذيل السلوك، تحقيق: لبيبة إبراهيم، ونجوى مصطفى، جـ٢ ص١١٣، مطبعة دار الكتب بالقاهرة. والضوء اللامع، دار مكتبة الحياة، بيروت جـ١ ص٢٧٥ .

(٨) ذكر المقريزي في الخطط جـ٢ ص٣ أن حارة زويلة محلة كبيرة بالقاهرة بينها وبين باب زويلة عدة محال سميت بذلك لأن جوهرًا لما اختط القاهرة أنزل أهل زويلة بهذا المكان، فتسمى بهم.

(٩) السخاوي: الضوء اللامع جـ٨ ص ١٦٩ .

ولدينا أخبار عديدة عن ذميين أسلموا عن إيمان ورغبة عميقة في التحلي بدين الإسلام، ولم يكونوا يعملون في أية وظيفة في الدولة المملوكية؛ مما ينفي تمامًا الطمع في منصب أو جاه، ومنهم: التاجر عز الدين عبد العزيز بن منصور أحد تجار الإسكندرية (ت٧١٣هـ/ ١٣١٣م)، وكان أبوه يهوديًا من أهل حلب يعرف بالحموي، فأسلم وأسلم أخوه وعزّ الدين بإسلامه[١] . ومنهم الرئيس الطبيب الماهر يوسف ابن الديان عبد السيد، ديان اليهود (ت٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م) الذي أسلم في سنة إحدى وسبعمائة بإسلام أبيه عبد السيد حيث توجه في هذه السنة إلى دار العدل بدمشق ومعه أولاده فأسلموا جميعًا، فأكرموا «وأسلم على يديه جماعة كبيرة من اليهود، وخرجوا يوم عيد الأضحى كلهم يكبرون مع المسلمين، وأكرمهم الناس إكرامًا زائدًا»[٢] .

ومنهم: الطبيب صدر الدين بديع بن نفيس البغدادي نزيل القاهرة (ت٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م) وكان يهوديًا فأسلم[٣] . ومنهم : خليل بن فرج بن سعيد الإسرائيلي المقدسي(ت٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م)، الذي أسلم ببيت المقدس، وله تسع عشرة سنة، وعنى بالعلم، وتفقه على مذهب الشافعي «فمهر وصار من أكثر الناس مواظبة على الطاعة»[٤] . ومنهم الطبيب اليهودي نفيس الذي اشتغل بالطب بالقاهرة أيام سلطنة الملك الناصر حسن، وأسلم على يد السلطان حسن[٥] بعد مناظرة جرت أمامه بين الطبيب اليهودي وأحد العلماء، وتسمى

(١) راجع النويري: نهاية الأرب جـ٣٢ تحقيق فهيم شلتوت ص٢١١، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٩ ص١٦٢-١٦٣ .

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية طبعة دار الغد العربي جـ١٤ مجلد ٧ ص ٣٨٩، وابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ٢ ص١١٣ .

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر، تحقيق: حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، جـ١ ص٢١٦، وابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، جـ٣ ص٥٦٢، وابن تغري بردي: المنهل الصافي تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، جـ٧ ص٢٩٢-٢٩٣، وذكر أن إسلام الأب وأخيه، وعز الدين كان في أيام الملك الظاهر بيبرس .

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٣٤٠، وابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، جـ٣ ص٢٢٧ .

(٥) راجع: ابن حجر: إنباء الغمر، جـ٣ ص٢٩-٣٠، وابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٨ ص ٣٧٥ - ٣٧٧، وابن الصيرفي: نزهة النفوس، تحقيق: حسن حبشي، دار الكتب، جـ٢ ص٣٣٥-٣٣٦،=

الطبيب بعد إسلامه بعبد السلام، وأسلم بإسلامه خلق كثير[1] . ومن ذرية الطبيب نفيس: الطبيب فتح الله بن معتصم بن نفيس (ت٨١٦هـ/ ١٤١٣م)، وكان رئيسًا للطب بمصر بعد عمه بديع بن نفيس[2] . كما أسلم ابن جنيبة اليهودي، ونشأ ابنه سليمان بن جنيبة (ت٨٢٤هـ/ ١٤٢١م) مسلمًا يتكسب بالطب حتى صار من مشهوري الأطباء عدة سنين، وكان فاضلاً في علم الطب، وتولى رئاسة الأطباء سنة ٨١٣هـ/ ١٤١٠م، وقد اختلط بالمؤرخ المقريزي كثيرًا؛ فلم يعلم عليه إلاّ الخير[3] .

كذلك أسلم الطبيب اليهودي إبراهيم بن عبد الله تقي الدين وأهل بيته، ومنهم ابنه يوسف بن إبراهيم، جمال الدين (ت٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م) الطبيب المشهور بمصر بالبراعة في الطب[4] . ومنهم يهودي عطار بدمشق (ت٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م) يدعي عبد الحق[5] .

وقد أسلم عدد آخر ضخم من أهل الذمة، عن اختيار وطواعية، وتولى بعضهم مناصب أو وظائف في الدولة المملوكية بعد إسلامهم، ومن هؤلاء: جرجس بن ميخائيل علم الدين (ت٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م) الطبيب المصري الذي اعتنق الإسلام وتسمى بإبراهيم وأسلم أخواه أيضًا، وقررهم الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م رؤوسًا للأطباء بالديار المصرية[6] . وظهير الدين أبو نصر السامري الدمشقي (ت٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م)، وكان سامريًا فأسلم في أيام حكم الملك المنصور قلاوون ثم تنقل ظهير الدين في الوظائف حتى ولى نظر

= والسخاوي: الضوء اللامع جـ٦ ص١٦٥-١٦٦، وابن العماد: شذرات الذهب، جـ٧ ص١٢٢ . ويذكر هنا أن السلطان حسن تولى مرتين: الأولى (٧٤٧- ٧٥٢هـ)، والثانية: (٧٥٥-٧٦٢هـ) .

(١) راجع ابن حجر: الدرر الكامنة جـ٥ ص١٦٩ .

(٢) راجع المصادر السابقة والصفحات نفسها بالهامش السابق مباشرة .

(٣) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم٢ ص٥٩٨، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٤ ص٧٢ .

(٤) السخاوي: الضوء اللامع جـ١٠ ص٢٩٢، وراجع ترجمته لدى المقريزي: السلوك جـ٤ قسم٢ ص٨٤٦، وابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص٤٥٤ .

(٥) ابن طولون: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص ٢٤ .

(٦) المقريزي: المقفى جـ٣ ص١٤ .

الجيش بدمشق «وكان جميلاً، لينًا، متواضعًا، محبًا لأهل الخير، ومواظبًا على الصلوات بجامع بني أمية، فيه بر وصدقات مع العفة»[1] . ومنهم: عبدالرحمن الطويل القبطي (ت٧١١هـ/ ١٣١١م)، وأسلم في أيام الأشرف خليل بن قلاوون، وانتهت إليه معرفة الكتابة الديوانية، وكانت له صدقات كثيرة[2] . ومنهم فخر الدين ناظر الجيوش[3] ، محمد بن فضل الله الذي أسلم عن قناعة كاملة إسلامًا حقيقيًا «ولم يقرب نصرانيًا ولا آواه ولا اجتمع به» وحج غير مرة، وبنى مساجد كثيرة في الديار المصرية[4] ، وعمر أحواضًا كثيرة في الطرقات، وبنى بنابلس مدرسة، وبنى بالرملة بيمارستانًا، وأكثر من أعمال البر، حتى إنه كان في آخر أمره (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) يتصدق كل شهر بثلاثة آلاف درهم، وكان ناظرًا للجيوش في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون، حريصًا على مال الدولة، مانعًا الناصر محمد بن قلاوون من المصادرات والمظالم[5] .

وممن أسلم ثم تولى بعض الوظائف لدى بعض الأمراء حتى أصبح يجمع بين نظر الجيش والخاص[6] : جمال الكُفَاة الرئيس إبراهيم جمال الدين (ت٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م) الذين كان نصرانيًا فأسلم، وتولى بعض الوظائف الصغيرة حتى جمع بين الوظيفتين السابقتين زمن الناصر محمد بن قلاوون،

---

(١) المقريزي: السلوك جـ٢ قسم١ ص٥٠-٥١، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ص٨ ص١٨٢ .

(٢) المقريزي: السلوك جـ٢ قسم١ ص١١٤، وراجع جـ١ قسم٣ ص٩٥٢ - ٩٥٣ ، وعنه أيضًا راجع النويري: نهاية الأرب جـ٣١ ص٣٤٦ .

(٣) نظر الجيوش وظيفة ديوانية يقوم صاحبها بالإشراف على إقطاعات الجند بمصر والشام، ويعاون صاحبها كُتَّاب وشهود. راجع: القلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص٣٠-٣١، وجـ١١ ص٣٢١ .

(٤) راجع ابن حبيب: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية للكتاب جـ٢ ص ٤٦، والمقريزي: الخطط جـ٢ ص٣٠٣ و٣١٠ ، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٩ ص٢٩ .

(٥) راجع الصفدي: الوافي بالوفيات جـ٤ ص٣٣٥-٣٣٧، وابن حبيب: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية للكتاب جـ٢ ص٢٢٧، وابن تغري بردي: المنهل الصافي، تحقيق: محمد محمد أمين، مطبعة دار الكتب المصرية جـ١٠ ص٢٦٣-٢٦٥، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان جـ٩ ص٢١٧، وراجع ترجمة المقريزي المختصرة لفخر الدين في «السلوك» جـ٢ قسم٢ ص٣٥٥ . وراجع الخطط جـ٢ ص٣٠٣ و٣١٠ .

(٦) نظر الخاص وظيفة يقوم متوليها بالإشراف على مال السلطان. القلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص١٩٠ . وراجع كذلك جـ٣ ص٤٥٢ و٤٦٢، وذكر القلقشندي أن الملك الناصر محمد بن قلاوون هو الذي أحدث هذا الديوان.

ولجمال الكُفَاة مكارم كثيرة[1]. ومنهم: إبراهيم بن عبد الله شمس الدين الوزير القبطي (ت٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م) أصله من نصارى مصر، فأظهر الإسلام ثم خدم في دواوين الأمراء حتى تعلق بخدمة الملك الظاهر برقوق - وهو أمير- فولاه نظر ديوانه ثم فوض إليه الوزارة لما صارت إليه سلطنة مصر سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م فنفذ الأمور، ونهض بالوزارة نهوضًا تامًا[2] . وذكر ابن تغري بردي أن الظاهر برقوق ولاه الوزارة على كره منه، وأحوال الدولة غير مستقيمة، فقام بأمرها أحسن قيام[3] .

ويعدُ الصاحب شمس الدين أبو الفرج المصري (ت٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م) النصراني نموذجًا لعدد كبير ممن أسلم في تلك الفترة التاريخية إسلامًا حقيقيًا، ثم تولى منصبًا من المناصب الكبرى في الدولة المملوكية، وكان وهو نصراني يتجر، وكان شديدًا في دين النصرانية حتى قيل: إنهم أرادوا أن يجعلوه بطريكًا للنصارى، فأسلم سنة (٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م) هو وأبوه وأخوه، وولي نظر الخاص ثم تولى الوزارة، وكانت أيامه طيبة، وجدد عدة جوامع بمصر[4] وبالمثل أسلم يحيى بن عبد الله بن بشارة النصراني (ت٧٩٥هـ / ١٣٩٢م) هو وأخوه مع والده، وباشر نظر الخاص مدة، ثم تولى الوزارة بدمشق[5] . وأسلم سعد الدين

---

(١) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ١ ص٤١٨، والمقريزي: السلوك جـ٢ قسم٣ ص٦٧٥ - ٦٧٦، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٠ ص٩١ .

(٢) المقريزي: السلوك جـ٣ قسم٢ ص٥٦٩، ودرر العقود الفريدة جـ١ ص١٦٦-١٦٨، وابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ١ ص٧٤-٧٦، وابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ١ ص١٦٠-١٦١، وترجم له السيوطي ترجمة مختصرة في: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية جـ٢ ص٢٢٥، وابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٣٣٨-٣٣٩ . وابن قاضي شهبة جـ٣ ص٢٢٤-٢٢٥ .

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١١ ص٢٥٦ .

(٤) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ٣ ص٣٨٧، وابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٤٦٠، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص١٠٥، والسخاوي: وجيز الكلام جـ١ ص١٤٥، وراجع ترجمة المقريزي المختصرة له في السلوك جـ٣ قسم٢ ص٧٩٣ .

(٥) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ٣ ص٤٩٩، وابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٤٦٦-٤٦٧ .

إبراهيم بن بركة المعروف بابن البشيري (ت٨١٨هـ/ ١٤١٥م) وتولى نظر الخاص وجدد بعض جوامع مصر[١] ، كذلك أسلم أبو سعد الدين إبراهيم (ت في أواخر ق٩هـ/ ١٥م) فلحقه إبراهيم ابنه وخدم بعض الأمراء في الدولة المملوكية[٢] .

وهكذا فإن هناك ذميين كثيرين أسلموا وتولوا وظائف عديدة بالدولة المملوكية بمصر والشام تحديداً، وكان إسلام هؤلاء إسلامًا حقيقيًا، فلم يسلموا لأجل وظيفة أو منصب، وعندما أسندت إليهم هذه الوظائف، فإنهم قاموا بها قيامًا طيبًا، كما أنهم أظهروا حسن إسلامهم بأعمالهم الخيرة، وسلوكهم الطيب، وبعدهم عن أقرانهم السابقين قبل الإسلام، وإنشائهم للعديد من المنشآت الإسلامية بمصر والشام. وهناك أمثلة عديدة لذميين آخرين[٣] أسلموا وتولوا بعض الوظائف والمناصب بمصر والشام وما ذكرته فقط بعض النماذج والأمثلة في هذا الاتجاه.

كذلك هناك ذميون عديدون أسلموا عن قناعة تامة، وعقيدة صحيحة، وإيمان كامل، وحرية مطلقة وكانوا يتبوأون وقت إسلامهم بعض المناصب والوظائف بالدولة المملوكية، وكان إسلامهم دون جبر أو إكراه أو بسبب بعض الحوادث أو الأزمات أو المواقف التي قد تؤدي إلى إسلامهم، بل أسلم هؤلاء عن يقين تام وظهر ذلك في أعمالهم. ومن هؤلاء شاكر بن غبريان بن عبدالله البقري (ت٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م) الكاتب ناظر الذخيرة[٤] ، المنسوب إلى دار البقر

---

(١) راجع ابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص٧٦، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٣ ص٢٧٨، والمنهل الصافي جـ١ ص٦٠، والسخاوي: الضوء اللامع جـ١ ص٣٣، وابن إياس: بدائع الزهور جـ٢ ص١٩، وراجع ترجمته المقريزي المختصرة له في السلوك جـ٤ قسم١ ص٣٣٩ .

(٢) راجع السخاوي: الضوء اللامع جـ١٠ ص١٩٣-١٩٤ .

(٣) راجع على سبيل المثال المقريزي: السلوك جـ٤ قسم٢ ص٦٧٣ و٦٧٤، وابن حجز: أنباء الغمر جـ٣ ص٣٣٥، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٤ ص٢٩٧-٢٩٨ .

(٤) المراد بالذخيرة: ممتلكات السلطان من ذهب وفضة وغيرها، وقد ورد ذكرها في حوادث سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م لدى المقريزي في السلوك جـ٢ قسم٣ ص٦١٨، وناظر الذخيرة هو المسئول عن حفظ هذه الجواهر السلطانية.

من الغربيـة، وكان نصرانيًا فـأسلم على يد الشيخ شرف الدين مـوسى، وباشر شاكر نـظر الذخيرة في أيام السلطان حسن، وقـد بنى شاكر المدرسة البـقرية[1] بقرب جامع الحـاكم «ولما احتضر أبعد من عنده من النصـارى وأرسل إلى كمال الدين الدمـيـري وغـيـره مـن أهل العلم فلقنوه الشـهـادة عند مـوته، ودفن بمدرسته»[2] . وعبد الله، تاج الدين أبو غالب القبطي (ت٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م)، وكان نصرانيًا يباشر دواوين الأمراء، ثم أسلم وحج، وبنى مدرسة لطيفة بشاطئ الخليج الحاكمي[3] ، وولي نظر الذخيرة[4] .

ومن هؤلاء: علم الدين يحـيى (ت٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م) كاتب الأمـير شـرف الدين موسى بن الديناري، وقـد أسلم علم الدين يحيى سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م، وكان نصرانيًا، واستقر في نظر الخزانة الشريفة[5] .

---

(١) ذكر المقريزي هذه المدرسة في الخطط جـ٢ ص٣٩٠-٣٩١، وعاين الأستاذ مـحمد رمزي هذه المدرسة فتبين كما هو ثابت بنقش على بابهـا أنها أنشئت سنة ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م وتعرف اليوم باسم جـامع البقري بحارة العطوف المتـفرعة من شـارع باب النصر بالقـاهرة. وذكر أن قرية دار البـقر الآن قريتـان إحداهمـا تسمى «الجابرية» والأخرى «العامرية» من قرى مركز المحلة الكبرى. النجوم الزاهرة جـ١١ طبعة دار الكتب حاشية (١) ص١٢٨ .

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٦٥-٦٦، وراجع المقريزي: السلوك جـ٣ قسم١ ص٢٢٩ وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١١ ص١٠٣ .

(٣) ذكر الأسـتاذ محمـد رمزي في تعليقـه على هذا الخبر في الـنجوم الزاهرة طبعـة دار الكتب المصرية جـ١١ ص١٤١ هامش رقم (٣) أن هذه المدرسة هي الآن جامع الحنفي بشارع جامع البنات بالقاهرة، وعرفت بهذا الاسم نسبـة إلى الشيخ الحفني الشـافعي (ت١١٧٢هـ) الذي كان يسكن دارًا مـجاورة لهذا الجـامع، وكان ملازمًا للصلاة فيه، فعرف به.

(٤) ابن قاضي شهـبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ٢ ص٤٩٣، وراجع المقريزي: السلوك جـ٣ قسم١ ص٢٦٢، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١١ ص١١٣ .

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم٢ ص١٥٧، وراجع عن ترجمته: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج١١ ص٢٥٥ . ونظر الخـزانة يقوم مـتوليـها بالإشـراف على الخزانة التي هي مـسـتـودع أموال المملكة، فلـما استـحدثت وظيفة الخـاص على يد الناصر محـمد بن قلاوون انتقل مـا كان يحمل إلى الخـزانة إلى خزانة الخـاص، ولم يبق في الخـزانة الأولى إلاّ خِلعٌ تخلع منـها أو مـا يحـضـر إليـها ويصـرف أولاً فـأولاً. القلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص٣١ وجـ١١ ص٣٣٦-٣٣٧و٣٣٩ .

ومن هؤلاء أيضًا: عبد الرزاق بن أبي الفرج بن نقولا (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) الأرمني النصراني الذي كان صيرفيا بمنية عقبة من جيزة مصر ثم أسلم واستقر صيرفيا بَقطْيا[١] ، ومات هناك، فتولى ابنه فخر الدين ما كان يتولاه أبوه، ثم أصبح واليًا قطيا[٢] . ومنهم كذلك الأسعد بن الخضري النصراني (ت٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م) كاتب الأستادار [٣] الأمير فخر الدين، وكان الأسعد يميل إلى المسلمين حتى حفظ قطعة من القرآن الكريم، وتعلم النحو، فلما أسلم سنة (٨٢٠هـ/ ١٤١٧م) سمى (فخر الدين محمد) وتلقب بمحب الدين[٤] .

وأسلم الكاتب بدمياط ابن الملاح النصراني الملكي سنة ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م وتلقب بمجد الدين[٥] . كذلك أسلم يحيى بن عبدالله، علم الدين (ت٨٣٥هـ/ ١٤٣١م) المباشر لنظر الأسواق والذي تولى بعد ذلك الوزارة في دولة الملك الناصر فرج «وكان قد حسن إسلامه وترك مباشرة النصارى، وحج، وجاور بمكة، وصار يكثر من زيارة الصالحين الأحياء والأموات، وانسلخ عن أبناء جنسه انسلاخًا كليًا، بحيث لا يجتمع مع نصراني إلا عند ضرورة عظيمة، وكان دأبه الأفعال الجميلة، رحمه الله تعالى»[٦] .

---

(١) ذكر ياقوت (معجم البلدان جـ٤ ص٣٧٨) أن قَطْيَة قرية في الطريق بين مصر والشام بالقرب من الفرما. وذهب الأستاذ محمد رمزي أن (القاموس الجغرافي) طبعة الهيئة المصرية للكتاب القسم الأول ص٣٥٠-٣٥١ إلى أن هذه القرية قد اندثرت ولم يبق إلا أطلالها في الطريق بين القنطرة والعريش.

(٢) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ٤ ص١٢، وابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص٤١، وراجع ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص٧٩، و١٤١، والسخاوي: الضوء اللامع جـ٤ ص٢٤٨-٢٤٩ . وراجع ترجمة المقريزي له: السلوك جـ٣ قسم٢ ص٩٢٤ وجـ٤ قسم١ ص٢٦ . وابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم٢ ص٥١٦ .

(٣) الأستادار هو الذي يتولى شئون مسكن السلطان من المطابخ والشراب، والحاشية وغير ذلك. القلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص٢٠ . ولم يذكر ابن حجر اسم الأستادار .

(٤) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم١ ص٤١٨ ، وابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص١٤٢ .

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور جـ٢ ص١١٩ .

(٦) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم٢ ص٨٧٧، وراجع ابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص٤٨٩، وابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ٣ ص٢٤٤ . وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٤ ص٣٣٩ - ٣٤٠ .

أما أسرة بني الهيصم النصرانية المنسوبة[1] إلى المقوقس صاحب مصر قبل الإسلام، فقد أسلم أفرادها إسلامًا صحيحًا عن إيمان واقتناع، وابتعدوا عن أصحاب عقيدتهم السابقة، وتزوجوا من المسلمات، وأدوا الحج، وتفقه بعضهم، وأنشأوا بعض المنشآت النافعة للمسلمين؛ مما جعل ابن حجر يثني على بعضهم[2] . وكان الأخوان: عبدالغني (ت٨١٣هـ/ ١٤١٠م) وعبد الرزاق (ت٨٣٤هـ/ ١٤٣٠م) ابنا الهيصم قد أسلما وتوليا العديد من المناصب في الدولة المملوكية[3] ، وبالمثل تولى إبراهيم بن عبد الغني (ت٨٥٩هـ/ ١٤٥٤م) وظيفة نظر الدولة[4] ، ثم أصبح في سنة ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م وزيرًا للأشرف برسباي[5] . كما أن سبط عبد الرزاق ابن الهيصم (ت٨٤١هـ/ ١٤٣٧م) تولى العديد من المناصب الديوانية، ومن أهمها نظر الخاص للأشرف برسباي، والسبط ممن تفقه على مذهب الشافعي[6] .

وهكذا زخرت مصادرنا بالعديد ممن أسلم من أهل الذمة وهم يتولون مناصب ووظائف مختلفة بالدولة المملوكية بمصر والشام، ولا يمكن - هنا- تتبع هؤلاء جميعًا لكثرتهم[7] ، ولكن الشيء المؤكد هو أن هؤلاء جميعًا كانوا

---

(١) قيل: إن هذه الأسرة من ذرية المقوقس. ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ١ ص١١٣ وجـ٧ ص٢٥٤ و٣١٣، والنجوم الزاهرة جـ١٤ ص٣٣٦ .

(٢) راجع ابن حجر: إنباء الغمر جـ٤ ص٧٥، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٤ ص٣٦٤، والمنهل الصافي جـ١ ص١١٦-١١٨، والسخاوي: الضوء اللامع جـ١ ص٦٧-٦٩ .

(٣) راجع عنهما ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج٧ ص٢٥٤-٢٥٥ و٣١٣-٣١٤ . وترجم لهما ترجمة مختصرة المقريزي: السلوك جـ٤ قسم١ ص١٦٩ وجـ٤ قسم٢ ص٨٦٢، وابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص٤٥٣ وجـ٣ ص٤٦٢ .

(٤) نظير الدولة وظيفة يقوم صاحبها بمشاركة الوزير في كل ما يقوم به من أعمال كالكتابة والتوقيع تبعًا للوزير، وإن كان الوزير صاحب سيف كان ناظر الدولة هو المتحدث في أمر الحسابات وما يتعلق بها، والوزير مقتصر على النظر والتنفيذ. القلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص٢٩ و٣١ .

(٥) ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ١ ص١١٣-١١٦ .

(٦) ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ١ ص١١٦-١١٨، والسخاوي: الضوء اللامع جـ١ ص٦٨-٦٩ .

(٧) راجع أمثلة أخرى لدى النويري: نهاية الأرب جـ٣٣ ص٢٧٣، والصفدي: الوافي بالوفيات جـ٩ ص٤٥٨، وابن كثير: جـ١٤ مجلد ٧ ص٤٨٢، والمقريزي: المقفى جـ٢ ص٣٢٢، والسلوك جـ٢ قسم١ ص٢٤٧،=

حسني العقيدة، جيدي الإسلام، وأنهم لم يجبروا أهليهم على اعتناق الإسلام، ومن ثم وجدنا أسرًا يسلم بعضها ولا يسلم البعض الآخر، ومن ذلك أن عبدالله بن إبراهيم موفق الدين (ت٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م) أسلم مع أبيه سعد الدين كاتب جيش الشام، وكان عبدالله كاتبًا هو الآخر في هذا الديوان، وكان حسن الإسلام والعشرة، وبيته مقصد الفضلاء لكثرة تودده ومحبته وحسن عشرته ومروءته «وكانت له أخت لم تتحول عن النصرانية، فكان يتألم لذلك من غير قطع بره بها»[١] . كما كان ابن النحال القبطي مسلمًا، وأبوه نصراني[٢] ، كذلك كان الأخ أحيانًا يسلم مع أحد الأقارب دون أن يسلم أخوه[٣] أو يسلم الأب دون أن يسلم الأولاد[٤] ، وقد يسلم الابن دون الأم[٥] ، وهكذا لا إجبار ولا إكراه في الأعم الأغلب من أجل فرض الإسلام على أحد.

وقد أشارت المصادر التاريخية إلى العديد من علامات صحة من أسلم من أهل الذمة[٦] ؛ مما يؤكد على صحة إسلامهم، وحسن عقيدتهم.

= وقسم٢ ص٣٣٤، و٣٤٨، وقسم٣ ص٣٢١ و٦٢٧ و٦٦٥ و٨١٣و٩٠٤ وجـ٣ قسم١ ص٥١ و٩٦ وجـ٤ قسم١ ص٤٤٢-٤٤٣و٥٤٤، وقسم ٢ ص٦١٢ و٦٥٢ و٧٨٧ ، وابن قاضي شهبة جـ١ ص١٦٣ وجـ٢ ص٧٥ و٣٦٤ و٣٧٨ وجـ٣ ص١٠٣ و١٥٣ و١٧٥ و٢١١ و٣١١ و٣٩٠، وص ٦٤٠ و٦٤٦-٦٤٧ . وابن حجر: أنباء الغمر جـ١ ص٢٧٢ وص٤٠٢ وجـ٣ ص١١٠-١١١ و٤٠٩-٤١٠، وابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٣ ص١١٩-١٢٠ وجـ٧ ص٦٥ و١٣٣ و٣٤٠-٣٤٤ و٣٤٥، والنجوم الزاهرة جـ٩ ص٢٤٠ وجـ١١ ص٢٤ و٢٤٢ و٢٤٥ و٢٥٥ و٢٥٦ و٢٥٩ ، والسخاوي: الضوء اللامع جـ١ ص٣٣ وجـ٥ ص١٠٢ -١٠٣ و١١٨ وجـ٤ ص٣٢١ و٣٣٩ وجـ٦ ص١٧٢ ووجيز الكلام جـ١ ص٧٣ و٧٩ وجـ٢ ص٧٨١، والتبر المسبوك، طبعة مكتبات الكليات الأزهرية ص٤٠٨، وابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم٢ ص٣٧٤-٣٧٥ و٣٨٣ و٥١٧ و٥٤٤ وجـ٢ ص ٥٧ و١٠٤ و١١٩ و٤٤٧ .

(١) السخاوي: الضوء اللامع جـ٥ ص٤ . (٢) السخاوي: الضوء اللامع جـ٦ ص١٦٩ .

(٣) راجع السخاوي: وجيز الكلام جـ٢ ص٨٣١ .

(٤) راجع ابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص٤٧، وراجع خبر آخر لدى المقريزي: السلوك جـ٣ قسم١ ص٣٤٤، وجـ٤ قسم٣ ص١٢١٢، وراجع خبر لدى آخر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٥ ص٢١٨ .

(٥) راجع الصفدي: الوافي جـ١٤ ص١١٥ .

(٦) راجع في ذلك ابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص١١١، وابن تغري بردي: حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب جـ٢ ص٣٩٠-٣٩١ و٥٥٣-٥٥٤، والمنهل الصافي جـ٧ ص٢٥٧-٢٥٩ و٣٤٤ و٣٨٣، والنجوم الزاهرة جـ٩ ص٢٤٠ وجـ١٣ ص٢٨٣-٢٨٤، والسخاوي: الضوء اللامع جـ٥ ص١٠٣، والتبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية ص٤٠٨-٤٠٩، وابن إياس: بدائع الزهور جـ٢ ص٣٢٣ .

٢- التحول للإسلام بالإكراه:

لم يحدث أبدًا إكراه من قبل السلطة المملوكية لأهل الذمة من الأهالي بمصر والشام على اعتناق الإسلام، وإنما حدثت حالات قليلة مع بعض موظفي الدولة المملوكية من أهل الذمة؛ منها ما حدث لموظفي دمشق سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م حيث أمر السلطان الملك المنصور باستسلام أهل الذمة من الدواوين والكتبة، ومن لا يسلم يصلب، فأسلموا كرهًا فرارًا من القتل[١] . فإن هذه الحادثة كانت غريبة على الدولة المملوكية خاصة، والدولة الإسلامية عامة؛ فإنَّ جماعة من المفتين أفتوا هؤلاء المكرهين على الإسلام بصحة الرجوع عنه إلى دينهم، وكتبوا بذلك فتاوى إلى هؤلاء المكرهين، فعقد مجلس بشأنهم في السنة السابقة نفسها، وأثبت الإكراه بين يدي القاضي جمال الدين ابن أبي يعقوب «فعاد أكثرهم إلى دينهم، وضربت عليهم الجزية كما كانوا»[٢] .

ومن هذه الحالات الفردية المرتبطة ببعض الموظفين من الذميين، ما حدث سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م من السلطان الناصر محمد بن قلاوون مع رزق الله بن فضل الله مجد الدين (ت٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م) النصراني الذي كان يعمل في استيفاء الخزانة والخاص مع أخيه النشو[٣] ، وفي إحدى مرات دخول رزق الله على الناصر محمد استسلمه، فأبى، فلكمه بيده وعرض عليه السيف فأسلم وخلع عليه واستخدمه في ديوان أحد الأمراء «فساد وظهر صيته وعظم وشاع ذكره، وكان فيه كرم نفس ونظافة ملبس وميل إلى المسلمين» وكان يجهز إلى مكة للمجاورين ستين قميصًا في كل سنة، وكان يستسلم من يحبه من عبيده وغلمانه خفية خيفة من أمه[٤] .

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٤ مجلد٧ ص٢٩٦، والفيومي: نثر الجمان، مخطوط، قطعة ٢ ورقة ٢٣٥ أ .

(٢) ابن كثير: المصدر السابق ص٢٩٨-٢٩٩ .

(٣) سيأتي حديث مفصل عن هذا المستوفي الكبير الذي يشرف على ضبط الديوان التابع له ماليًا، ومراقبة الموظفين به، وضبط سير الأعمال اليومية بالديوان، وتبليغ متولي الديوان بما يجب تحصيله من الموارد المالية في مواعيدها المحددة. راجع القلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص٢٩-٣٠ وجـ٥ ص٤٦٦ .

(٤) الصفدي: الوافي بالوفيات جـ١٤ ص١١٤-١١٥، وابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٥ ص٣٤٨-٣٤٩ .

ومعنى هذا أنّ رزق الله بن فضل الله قد حسنت عقيدته الإسلامية، وأنه اقتنع بالإسلام، وعمل له، بعد أن كان مكرهًا عليه في البداية. وممن دخل الإسلام عن إكراه أيضًا شرف الدين عبدالوهاب بن التاج المعروف بالنشو[1] (ت٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م) أخو رزق الله السابق، وكان شرف الدين نصرانيًا كاتبًا من كتاب الأمراء، فرآه الناصر محمد بن قلاوون وجعله مستوفيًا في الجيزة ثم نقله إلى استيفاء الدولة فباشر ذلك مدة، ثم إنه استسلمه على يد الأمير سيف الدين بكتمر الساقي (ت٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م) وأصبح بعد ذلك ناظرًا للخاص. وكان في الاستيفاء وهو نصراني ذا أخلاق حسنة؛ فيه بشر وطلاقة وجه وتسرع لقضاء حوائج الناس الذين أحبوه، فلما تولى الخاص ساءت أخلاقه وفتح باب المصادرات[2]. وكان الصفدي قد رأى سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م وهو بمصر أوراقًا معه بها ثمن المماليك التي اشتراها السلطان من أول مباشرة النشو لعمله سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م وحتى سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م وجملة ذلك أربعة آلاف ألف وسبعمائة ألف دينار[3]، ولم ترد أية إشارة عن عقيدة النشو بعد إسلامه من حيث الصحة والثبات على الإسلام أو الوقوع فيما يناقض هذه العقيدة أو يشكك فيها.

وحدثت حالة أخرى سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م حيث غضب السلطان الظاهر برقوق على الصاحب علم الدين عبد الوهاب الطنساوي الوزير بالديار المصرية، وصرفه عن الوزارة[4]، واستدعى السلطان برقوق الأسعد

---

(١) يذكر هنا أن هناك سميًا له آخر هو عبد الوهاب النشو، تاج الدين المصري الذي أسلم هو الآخر وتوفى سنة ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م وولى الوزارة بمصر خمس مرات، وولي نظر الجيش مدة يسيرة. راجع عنه المقريزي: السلوك جـ٣ قسم١ ص٤٠٧، وابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ٣ ص٤٧.

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات جـ١٩ ص٣٢٤-٣٢٧، والمقريزي: السلوك جـ٢ قسم٢ ص٥٠٥-٥٠٦. وذكر أنه بلغ ما لم يبلغه أحد من الأقباط المسلمين في دولة الترك. وراجع ابن تغري بري: المنهل الصافي جـ٧ ص٣٩٠-٣٩١، والنجوم الزاهرة جـ٩ ص١١٠-١١١ و٢٣٨.

(٣) الصفدي: الوافي جـ١٩ ص٣٢٧.

(٤) ذكر ابن حجر في إنبائه جـ١ ص٢٦٣ أن سبب غضب السلطان علي الوزير ضجر المعاملين في اللحم من تأخر حقهم.

أبا الفرج (ت٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م) النصراني اليعقوبي كاتب الحوائج خاناه[١] فاستسلمه[٢] ، فأسلم، فخلع عليه ولقبه «موفق الدين» وولاه ناظر ديوان ولده محمد مع الأمير بهادر المنجكي الأستادار، ثم عينه في سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م ناظراً للخاص[٣] . وقد وصفه المقريزي بأنه كان من أشر الوزراء سيرة، وبه اهتدى في الظلم من بعده، وأنه لم يؤمن بالله قط، بل أكره حتى قال كلمة الإسلام، فتسلط على الناس، وكان هو يباشر الحوائج خاناه مشكوراً بكثرة بره ومراعاة الناس، فلما تظاهر بالإسلام كان عذابًا راصدًا على عباد الله[٤] .

وذكر ابن تغري بردي أن الأسعد موقف الدين بلغ من المسلمين مبلغًا عظيمًا من الظلم والجور، وقال المؤرخ الكبير: «لا ألومه على ما فعله وما الذنب إلا لموليه»[٥] .

وهناك حالة إسلام اختلفت المصادر في وصفها، وهي إسلام عبدالوهاب بن الشمس نصر الله الشهير بلقب والده الخطير (ت٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م)، وقد نشأ عبدالوهاب بمصر على دين النصرانية، وبرع في قلم الدّيوْنَة والمباشرة، وخدم في

---

(١) الحوائج خاناه: معناها بيت الحوائج ومنها يصرف اللحم للمطبخ السلطاني والدور السلطانية ورواتب الأمراء والمماليك السلطانية وسائر الجند والمتعممين وغيرهم من أصحاب الرواتب المدونين في الدفاتر، وكذلك توابل الطعام للمطبخ السلطاني والدور السلطانية وغير ذلك من الأصناف المتعددة. القلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص١٢-١٣ .

(٢) عبارة ابن حجر في إنبائه جـ١ ص٢٦٣ «فعرض عليه الإسلام فبادر إليه». وعبارة المقريزي في: السلوك جـ٣ قسم٢ ص٤٨٠ «وأكرهه حتى أظهر الإسلام» وهي عبارة ابن الصيرفي في: نزهة النفوس جـ١ ص٥١ . وذكر ابن إياس في: بدائع الزهور جـ١ قسم٢ قوله: وأمره بأن يسلم غصبًا».

(٣) المقريزي: السلوك جـ٣ قسم٢ ص٤٨٠، وابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ٣ ص٥٢٨-٥٢٩، وابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٢٦٢-٢٦٣ و٢٧٧، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص١٠٧-١٠٨، وابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ١ ص٥١، وابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم٢ ص٣٢٣ .

(٤) المقريزي: السلوك جـ٣ قسم٢ ص٨٢٠، وابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ٣ ص٥٢٨-٥٢٩، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص١٠٧-١٠٨ .

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص١٠٨ .

عدة جهات. ويذكر ابن حجر[1] أنه أسلم على يد السلطان الأشرف برسباي قبل أن يتسلطن، وذلك في أيام حكم المؤيد شيخ المحمودي (٨١٥-٨٢٤هـ/ ١٤١٢-١٤٢١م) وخدم في ديوان الخاص، ثم ولاه الأشرف نظر الإسطبل[2]، فشكرت سيرته وأمانته، فتولى سنة ٨٣٤هـ/ ١٤٣٠م النظر في ديوان المفرد[3]. ويثني المقريزي في «السلوك»[4] على عبدالوهاب بن الخطير، تاج الدين من حيث حسن سيرته، وأمانته، وعفته، ورفقه بالفلاحين، وحسن سياسته، ولينه، وإحسانه، وبره «بحيث لا يوجد في أبناء جنسه من يدانيه، فكيف يساويه؟ وإن أراد الله عمارة البلاد جعل إليه تدبير أمرها». وينص المقريزي على أن الأشرف برسباي ألزمه بالإسلام فأسلم[5]. في حين أنّ ابن تغري بردي[6] والمؤرخ المجهول[7] والسخاوي[8] يذكرون أنه أكره حتى أظهر الإسلام دون أن يبينوا ظروف هذا الإكراه، أو شخصية المكره، ويذكرون أنه لم يكن عليه نور الإسلام، واحتاط السخاوي لنفسه بقوله: «والله أعلم»[9]. أما ابن تغري بردي فذكر قلة دينه، وكثرة ميله إلى عقيدة النصرانية، ووصفه بعدة أوصاف يشكك ابن تغري بردي من خلالها في صحة إسلام عبدالوهاب الخطير[10].

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص٤٥٦ .

(٢) موضوع هذه الوظيفة النظر في أنواع الخيول والبغال والدواب والجمال السلطانية وطعامها، وما يتباع لها أو يباع منها، وأرزاق المستخدمين بها ونحو ذلك. القلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص٣٢ .

(٣) ديوان المفرد لم يرد عند القلقشندي، ويبدو أنه يتصل بديوان الخاص، حيث أفردت بعض مهام هذا الديوان لمتولي آخر سوى ناظر الخاص الذي يتولي كل ما هو خاص بمال السلطان وبالمستأجَرَات السلطانية وغيرها، وله أتباع من الكتاب والنظار للخزانة وغيرها. راجع عن نظر الخاص القلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص٣٠ وص١٩٠، والسيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية جـ٢ ص١٣٠ .

(٤) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم٢ ص٨٦١، وابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ٣ ص٢٢٥ .

(٥) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم٢ ص٨٦٠ .

(٦) ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٧ ص٣٩٩ .

(٧) مؤرخ مجهول: حوليات دمشقية نشر وتحقيق حسن حبشي، مكتبة الأنجلو المصرية ص١٢ .

(٨) السخاوي: الضوء اللامع جـ٥ ص١١٤-١١٥ .

(٩) السخاوي: المصدر السابق جـ٥ ص١١٥ .

(١٠) ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٧ ص٤٠٠ .

ولا تفسير - أمامي- لما ذكره ابن تغري بردي والسخاوي عن التشكيك في حسن إسلام ابن الخطير سوى أن علامات ظهرت منه وقف عليها ابن تغري بردي خاصة جعلته يذهب هذا المذهب، لاسيما وأنه معاصر لابن الخطير، وترجم له في حياته فهو يقول في المنهل الصافي: «وهو الآن من جملة الأحياء»[1]. ولكن ابن تغري بردي نفسه في «النجوم الزاهرة» ذكر وفاته وترجم له ووصفه بأنه من أحسن الوزراء سيرة، ولم يعرض لدينه[2]. وعلى أية حال فإن كانت روايات إكراهه على الإسلام هي الأصح، فإن هذه الروايات لم تذكر سوى أنه لم يكن عليه نور الإسلام أو أنه كان يميل إلى عقيدته السابقة، ولم تلمح أو تصرح بشيء من ابتعاده الكامل عن الإسلام.

وفي سلطنة الأشرف برسباي أيضًا ضُرب الطبيب النصراني العفيف[3] (ت٨٤١هـ/ ١٤٣٧م) بحضرة السلطان[4] حتى أظهر الإسلام، وكان له أولاد بالغون ظلوا على عقيدتهم[5].

وممن اختلفت المصادر حول طريقة إسلامه أيضًا ماجد بن النحال، مجد الدين (ت٨٤٣هـ/ ١٤٣٩م) كاتب ديوان المماليك، وهو من نصارى مصر، وبرع في الحساب، واستقر في ديوان الأمير نوروز الحافظي (ت٨١٧هـ/ ١٤١٤م) بدمشق مدة، وأظهر الإسلام كما يقول المقريزي[6]، وابن الصيرفي[7].

لكن ابن تغري بردي[8] والسخاوي[9] أيضًا ذكرا أنّ الأمير نوروز الحافظي

---

(١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٧ ص٤٠٠.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٦ ص٢٨٠.

(٣) راجع عن هذا الطبيب المقريزي: السلوك جـ٤ قسم٢ ص١٠٤١-١٠٤٢، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٤ ص٢٨٠ - ٢٨١.

(٤) انفرد المقريزي بذكر هذا الخبر ولم يورد تفاصيل تبين سبب الضرب أو غير ذلك. السلوك جـ٤ قسم٣ ص١٢١٢.

(٥) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم٣ ص١٢١٢.

(٦) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم٣ ص١١٩٨.

(٧) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ٤ ص١٨٦.

(٨) ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٩ ص١٨٦، والنجوم الزاهرة جـ١٥ ص٢١٨.

(٩) السخاوي: الضوء اللامع جـ٦ ص٢٣٥.

ألزمه بالإسلام «فأظهر الإسلام، وأبقى جميع من عنده من النسوة والخدم على النصرانية» فكان إسلامه ظاهريًا، حتى إنّ ابن تغري بردي لم يصل عليه عندما علم بوفاته، وحضر الصلاة عليه الأمير تغري برمش[1] (ت٨٤٢هـ/١٤٣٨م) فقال: «نويت الصلاة عليه إن كان مسلمًا»[2] . ويبدو أن ابن النحال لم يكن جيد الإسلام بدليل قول المقريزي عنه: «لا دين ولا دنيا»[3] ، ولكن لم ترد أية إشارات عن طعنه في الإسلام أو رسوله ﷺ أو وقوعه في مخالفة شرعية واضحة يحكم عليه من خلالها بردته وترك عقيدة الإسلام.

٣- التحول للإسلام طمعًا في منصب أو وظيفة:

احتفظ عدد ضخم من أهل الذمة بمناصبهم ووظائفهم بالدولة المملوكية دون أن يغيروا عقائدهم، وأدوا ما عليهم من واجبات وأخذوا حقوقهم، وتوفى هؤلاء وهم على عقيدتهم دون أن يعتنقوا عقيدة أخرى، كما كان غيرهم يمارسون مهنهم في الدولة المملوكية وهم على دينهم دون أن يتحولوا إلى الإسلام؛ حيث كانت الحرية الدينية مكفولة للجميع في هذا المجال. ومن هؤلاء الذميين المحتفظين بوظائفهم في الدولة المملوكية أو بمهنهم: مستوفي قوص النصراني[4] الذي كانت له وجاهة وسلطة، وقصده ابن دقيق العيد الفقيه المشهور (ت٦٦٧هـ/١٢٦٨م) فطرق بابه وطلب منه أن يسامح رجلاً فقيرًا يدعى «الشنهوري» عليه مال للدولة، وقد عجز عنه، فأجاب المستوفي النصراني العالم

---

(١) الأمير تغري برمش، حسين بن أحمد خدم عند بعض الأمراء ومنهم والد المؤرخ تغري بردي، ثم تولى نيابة قلعة الجبل من سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م إلى سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٣م ثم تولى نيابة حلب سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥م فباشرها على أتم وجه وأحسن طريقة، وعندما تسلطن الظاهر جمقق سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م شرع في العصيان حتى قتل في السنة السابقة نفسها على أيدي العساكر السلطانية. راجع ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٤ ص٥٨-٦٥ .

(٢) ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٩ ص١٨٦، والسخاوي: الضوء اللامع جـ٦ ص٢٣٥ .

(٣) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم٣ ص١١٩٨، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٥ ص٢١٨، وابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ٤ ص١٨٦ .

(٤) لم تصرح مصادرنا باسمه .

ابن دقيق[1] . ومن هؤلاء الطبيب اليهودي موفق الدين يعقوب (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) الذي كان يعيش بدمشق وبرع في الطب، وعالج الأعيان، وصنف العديد من المؤلفات الطبية[2] . والطبيب أبو الفرج بن يعقوب القف (ت٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) وهو طبيب من نصارى الكرك وتوفى نصرانيًا[3] . والطبيب الفتح بن يوحنا (كان حيًا سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م) النصراني الذي كان طبيبًا بدمشق، وتوفي ولم يغير عقيدته[4] . كذلك كان للرشيدي أستادار نائب السلطنة سلار المنصوري[5] (ت٧١٠هـ/ ١٣١٠م) كاتب نصراني[6] .

ومن أطباء الناصر محمد بن قلاوون طبيب يهودي وثق به السلطان محمد ثقة لا حد لها هو الطبيب فرج الله بن صغير الذي مات على اليهودية، وكان مرتبطًا بعلاقة صداقة وصحبة بالمؤرخ العمري (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) الذي طلب نصحه عندما أراد أن يحج حجته الثالثة وقت الصيف الحار، فنصحه بما يجنبه آثار شدة الحرارة في أثناء حجه[7] .

كذلك كان السديد الدمياطي الطبيب اليهودي (ت٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م) من أطباء الناصر محمد بن قلاوون، ووصف السديد بأنه لم يكن في عصره مثله في العلاج، وارتبط بصداقة مع المؤرخ الصفدي (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م) الذي

(١) راجع الأدفوي: الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق: سعد محمد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة ص٤٢٩، وراجع ترجمة ابن دقيق من ص ٤٢٤-٤٣٥، وابنه هو الفقيه ابن دقيق العيد أيضًا (ت٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م) راجع ترجمته في «الطالع السعيد» ص ٥٦٧-٥٩٩.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الثقافة، بيروت - لبنان جـ١ ص٤٤٣-٤٤٤ .

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء جـ٣ ص٤٤٤-٤٤٥ .

(٤) الكتبي: عيون التواريخ، تحقيق: د. فيصل السامر ونبيلة عبدالمنعم، منشورات وزارة الثقافة والإعلام بالعراق جـ٢١ ص٤٣٠ . ويذكر هنا أن ابن النفيس كان أستاذًا لهذا الطبيب النصراني.

(٥) كان سلار المنصوري نائب السلطنة بمصر في ولاية الناصر قلاوون الثانية (٦٩٨-٧٠٨هـ/ ١٢٩٨-١٣٠٨م) والوقوف على ترجمة سلار المنصور راجع ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٦ ص٥-١٣ .

(٦) ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٧ ص٣١٢ .

(٧) العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأنصار، تحقيق: عصام عقلة ويوسف ياسين، مركز زايد للتراث والتاريخ جـ٩ ص٥١٢، وراجع من ص ٥٠٩ .

حضر معالجاته مرات عديدة، وتولى السديد على عقيدته اليهودية[1] . وفي سلطنة الملك الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون (ت٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م) اشتهر الكاتب النصراني الديواني الرضي بحسن خطه[2] . كذلك توفى الطبيب عوض اليهودي (٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م) على يهوديته، وكان قاضي اليهود بدمشق «وله شهرة في الطب ودخول على الأعيان»[3] . كما أن الأسعد البحلاق النصراني كان مستوفيًا لديوان المفرد سنة ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م في زمن الظاهر برقوق (٧٨٤-٨٠١هـ/ ١٣٨٢-١٣٩٨م) وظل على نصرانيته في وظيفته[4] .

ويذكر المقريزي[5] وغيره[6] أنه في سنة ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م توفى الرئيس إبراهيم بن فرج الله بن عبدالكافي الإسرائيلي اليهودي، ولم يخلف بعده من يهود مصر مثله في كثرة حفظه نصوص التوراة وكتب الأنبياء وفي تنسكه في دينه «مع حسن علاجه لمعرفته بالطب وتكسبه به».

واستمر ذلك إلى نهاية الدولة المملوكية، فلقد كان أميرشكار[7] السلطان قانصوة الغوري (٩٠٦-٩٢٢هـ/ ١٥٠٠-١٥١٦م) أزبك النصراني (ت٩١٠هـ/ ١٥٠٤م) الذي كان قد تولى عدة وظائف قبل وظيفته تلك[8] .

ويطول الحديث[9] عن ذكر كل من بقي على عقيدته من أهل الذمة، ولم

---

(١) راجع الصفدي: الوافي بالوفيات جـ١٥ باعتناء بيرند راتكه جـ١٥ ص١٢٧-١٢٨، وابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٥ ص٣٨٤، وذكرا أنه من تعلم الطب على الطبيب ابن النفيس.

(٢) راجع ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٢ ص١٦٣، وراجع من ص١٥٨-١٦٤ .

(٣) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ٣ ص٢٠٢ .

(٤) راجع: المقريزي: السلوك جـ٣ قسم٢ ص٨٧٨ .

(٥) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم٣ ص١٢٣٦، وذكر أنه كان يقر بنبوة الرسول ﷺ ويجهر بأنه بعث للعرب فقط، وأنه كان يقول في المسيح عليه السلام إنه صديق.

(٦) السخاوي: الضوء اللامع جـ١ ص١١٦-١١٧ .

(٧) إمرة الشكار وظيفة يقوم متوليها بالإشراف على الجوارح السلطانية من الطيور والصيود السلطانية، وأحواش الطيور وغيرها، أي هي إمارة مسئولة عن الصيد وما يتصل به. القلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص٢٢ .

(٨) راجع ابن إياس: بدائع الزهور جـ٣ ص٤٥٧ و٤٧٥ وجـ٤ ص٥ و٧٨ .

(٩) راجع أمثلة أخرى لدى المقريزي: السلوك جـ٢ قسم٣ ص٩٠٣، وجـ٤ قسم٢ ص٨٤٦، وابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ٣ ص٢٠٢، وابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ١ ص٣٥٦، والسخاوي: الضوء اللامع جـ١٠ ص١٩٤، وابن إياس: بدائع الزهور جـ٢ ص٦ .

يتحول عنهـا، واستمر في وظيفته بالـدولة أو في مهنته وهو على دينه، مما يبين أن القاعدة العـامة التي التزمتها الدولـة المملوكية هي حرية العقيـدة، وأن الحياد عنها - أحـيانًا- كـان استثنـائيًا، ولم يجبـر كل الموظفين الذميين علـى اعتناق الإسلام، بل إن بعضـهم بمحض إرادتهم اعتنقوا الإسلام بغرض الاسـتمرار في المنصب أو الوظيفة أو لطلب إحداهما. ومما يبين أن الحرية الدينية كانت مكفولة لأهل الذمـة من الموظفين عند صدور قـرارات ضد وجـودهم في مناصبـهم أن بعضهم كانوا لا يتركون عقيدتهم إبان صدور هذه القرارات -كما سيأتي-:

وكانت الدولة المملوكية تصدر في بعض الأوقات تعليمات بعدم استخدام أحد من أهل الذمـة في ديوان مـن دواوين السلطان والأمـراء[1] ، ولا تنفـذ هذه التعليمات، كمـا حدث سنة ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م حيث رسم السلطان الملك الأشرف برسبـاي بألاَّ يُسْتـخدم أحد من اليـهود والنصـارى في ديوان من دواوين السلطان والأمراء، وصمم على ذلك، فلم يسلم من بعض عظمـاء الأقباط (الذين أسلموا) من مباشري الدولة، فتشفعوا لهؤلاء الذميين، فلم يتم ما أمر به السلطان[2] .

ولاشك في أنّ نفوذ أبناء الأقليات الدينية الناتج عن توليهم لوظائف الإدارة والمالية لخبرتهم في شئون الإدارة والمال، جعلتـهم متهمين بالتحكم في مقدرات المسلمين، وبأنهم استخدموا نفوذهم في دفع من يتعرض لهم[3] .

---

(١) يذكر د. يوسف القرضاوي أنه يجوز لأهل الذمة تولي وظائف الدولة كالمسلمين إلا ما غلب عليه الصبغة الدينية كالإمـامة ورئاسة الدولة والقيـادة في الجيش والقضاء بين المسـلمين والولاية على الصدقات ونحو ذلك. غـير المسلمين في المجتمع الإسـلامي، مكتبة وهبة ص ٢٣وراجع في ذلك نمر محـمد الخليل: أهل الذمة والولايات العامة في الفقه الإسلامي، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن، ص ٦٥-٣٣٩ . وراجع الباب السابع عشر «في عقـد الذمة وأحكامه» من كـتاب بدر الدين بن جمـاعة (ت٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م): تحرير الأحـكام في تدبير أهل الإسلام. تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، مطبوعات رئاسة المحاكم الشرعية بقطر ص ٢٤٨-٢٦٣ .

(٢) المتريزي: السلـوك جـ٤ قسم٢ ص٦١٠، وابن تغري بردي: النجـوم الزاهرة جـ١٤ ص٨٤ ، وابن إياس: بدائع الزهور جـ٢ ص٨٢ .

(٣) قاسم عبده قـاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصـر سلاطين المماليك، دار المعارف ص٧٢-٧٣، بتصـرف يسير، وراجـع أهل الذمة في مصـر العصور الوسطى، دراسـة وثائقيـة، دار المعارف ص ٨٨ . واليهود في مصر من الفتح العربي حتى الغزو العثماني، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ص١٠١ .

ولذا كان سلاطين المماليك يضطرون في بعض الأحيان إلى إبعاد بعض أهل الذمة عن مناصبهم بالدولة. واعتقد بأن هذا الإبعاد لم يكن للذميين جميعًا، بل لبعضهم؛ بدليل أن الظاهر بيبرس قام سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م - كما تذكر مصادرنا- بإبعاد الأقباط النصارى من معظم دواوينه، فباشروا الصنائع كالنجارة والبناء[١] ، في حين أن نصرانيًا متمسكًا بعقيدته - ومات عليها- هو السديد هبة الله (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) ظل مستوفيًا بمصر، متقدمًا عند الظاهر بيبرس، ولم يشاركه أحد من أبناء جنسه قربًا من الظاهر بيبرس، وكان وزراء[٢] الظاهر بيبرس يستشيرون السديد النصراني في سائر الأحوال؛ لمعرفته التامة بالديار المصرية والشامية[٣] . ولما توفى الأسعد النصراني عين الظاهر بيبرس مكانه ابنه الأسعد جرجس (ت٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م)، وكان نصرانيًا لم يسلم بعد[٤]، فتمكن تمكنًا لم يسمع بمثله لمثله إلى أيام المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ/ ١٢٧٩-١٢٩٣م)، حتى إن المنصور قلاوون عندما أوقف أوقافًا على مدرسته وبيمارستانه وتربته بين القصرين بالقاهرة، وأشهد على ذلك وثبتت على القضاة الأربع بالديار المصرية، ونفذ بمصر والشام، وأحضرت الكتب الثابتة المنفذة بين يدي الملك المنصور، وقرئت عليه ورآها مكملة الخطوط على جارى العادة، قال: أين خط الأسعد (النصراني) ؟ قالوا: يامولانا ما مثل هذا يكتب عليه الأسعد، إنما هذا خط القضاة بالديار المصرية والشامية: «فقال: هذا كله فشار، ما ينفع. فلما سمعوا كلامه

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٧ ص١٧٥ .

(٢) للوقوف عليهم راجع ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، اعتناء أحمد حطيط ص ١٣٤ و٢٣٤ وهم الوزير بهاء الدين أبو الحسن علي، وابنه أبو عبدالله محمد، وابنه تاج الدين محمد وأخوه محيي الدين أحمد.

(٣) راجع النويري: نهاية الأرب جـ٣١ ص٩٤، وابن الفرات: تاريخ ابن الفرات جـ٧ ص٢٥٧، والكتبي: عيون التواريخ جـ٢١ ص٣١٦، وترجمة المقريزي المختصرة في: السلوك جـ١ قسم٣ ص٧١١ .

(٤) تولى الأسعد السديد استيفاء الدولة بعد أبيه، أي ضبط مالية الدولة المملوكية في مصر والشام، وأسلم في دولة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩-٦٩٣هـ/ ١٢٩٠-١٢٩٣م)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٨ ص٦٦ . وراجع حتى ص٦٧ حيث ذكر موقفًا للأسعد قبيل وفاته يشكك في صحة إسلامه.

استجهلوه وأخذوا الكتب ومضوا بها إلى الأسعد (النصراني) وقالوا له: اكتب على هذه الكتب ما يراه السلطان حتى يطمئن به، فكتب عليها جميعًا: نزل علمه بالديوان السلطاني، فأخذوا الكتب، ومضوا إلى السلطان وأخبروه أن الأسعد كتب عليها وأروه الخط، فقال: هذا مليح»[1].

ومما سبق يتبين لنا طرفًا من مكانة بعض موظفي الذمة في الدولة المملوكية، ومن الغريب أن تنسب المصادر التاريخية إلى المنصور قلاوون - بعد موقفه عن الأسعد النصراني- أنه أصدر مرسومًا سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م بألا يستخدم أحد من أهل الذمة من اليهود والنصارى، في المباشرات الديوانية «فصرفوا منها»[2]. كيف هذا، والأسعد النصراني له كل النفوذ السابق ذكره؟؟ إلا إذا كان المراد صرفهم من ديوان الجيوش، وهو ما قام به المنصور قلاوون قبل هذا في سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م حيث صرفهم منه وأقام بدلهم كتاب مسلمون[3]. وديوان الجيوش خصوصًا عرف منذ الأيوبيين نوعية من أهل الذمة يتعنتون مع الراغبين في التجنيد أو يوزعون إقطاعات الجنود في أماكن متفرقة؛ فيضعفون بذلك دخل الجنود، كما يضعفون الدولة أيضًا[4]. أما باقي دواوين الدولة فإن أهل الذمة استمروا بها في وظائفهم على عهد المنصور قلاوون[5].

على العموم تكررت مراسيم صرف الذمة عن أعمالهم بدواوين الدولة

---

(١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات جـ٨ ص٢٥٧، ونقل هذه الرواية عن شيخه قاضي القضاة زين الدين ابن البسطامي الحنفي. وذكر ابن الفرات أنه كان يُضرب المثل بخط الأسعد جرجس النصراني فيقال: هو «بخط الأسعد».

(٢) النويري: نهاية الأرب جـ٣١ ص١٧١، وابن الفرات: تاريخ ابن الفرات جـ٨ ص٩٣، والمقريزي: السلوك جـ١ قسم٣ ص٧٥٣، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٧ ص٢٧٥.

(٣) المقريزي: السلوك جـ١ قسم٣ ص٦٦٧.

(٤) راجع في ذلك ابن الأثير: الكامل، طبعة دار صادر، بيروت، جـ١٢ ص٥٥. وعثمان النابلسي: لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية، مكتبة الثقافة الدينية ص٧١، والنويري: نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٤٨ وجـ٣١ ص٤٢٠.

(٥) راجع العيني: عقد الجمان جـ٣ ص١٨١.

المملوكية، وتكرار صدور هذه المراسيم بين الحين والحين الآخر دلالة على عدم الالتزام بها[1] ، كما أن سوء استغلال بعض أهل الذمة لمناصبهم بالدولة وسوء معاملتهم للمسلمين أثار ضدهم الجماهير العريضة من المسلمين، فلجأت الدولة إلى إصدار مراسيم منع أهل الذمة في العمل بالدواوين الحكومية؛ ومن ذلك قرار الأشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م بمنع النصارى واليهود من العمل في دواوينه بمصر والشام إلاَّ من أسلم منهم، وكان سبب ذلك ما ظهر من نصراني يعمل عند أمير يدعى «عين الغزال» في ديوان «خاص السلطان» وكان لمسلم دين للديوان، فلما رآه الموظف النصراني سبَّه وشتمه والمسلم يعتذر إليه ويقبل رجله[2]، والموظف لا يقبل منه ويأمر بالقبض عليه، فاجتمع خلق كثيرون يسألون النصراني أن يطلقه وهو يأبى عليهم، فقاموا عليه، فهرب منهم وحماه أتباع الأمير «عين الغزال»، فتوجه العامة إلى القلعة معترضين، وسمع السلطان اعتراضهم وأصدر أمره بمنع استخدام أهل الذمة في الدواوين، وعلى إثر ذلك أسلم جماعة من موظفي أهل الذمة منهم: أمين الملك بن غنام، وابن السقاعي وابن لُفَيقة كاتب ديوان النائب، ولم يرضِ هذا الإسلام الفقهاء والقضاة، على أساس أن هؤلاء سيتسلطون على المسلمين أكثر بدعوى كونهم مسلمين[3] .

وحدث سبب المنع مرة أخرى سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م حيث شوهد موظف نصراني هو أمين الدين بن أمين الملك ابن الغنام[4] مستوفي الصحبة يركب فرسًا

---

(١) سيدة كاشف: مصر الإسلامية وأهل الذمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ١٥٧ .

وراجع قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي ص ٨٦ .

(٢) وردت إشارات عديدة في مصادرنا عن تقبيل بعض المسلمين لأيدي أو أرجل موظفي أهل الذمة، وعدم اعتناء أو اهتمام هؤلاء الموظفين الذميين بذوي المطالب والحاجات من المسلمين، الأمر الذي كان يؤدي إلى حدوث العديد من المشاكل، وراجع على سبيل المثال المقريزي: السلوك جـ٢ قسم ١ ص٢٤٢ . وستأتي أمثلة أخرى بالمتن. وراجع ابن الأخوة: معالم القربة ص٤٢ - ٤٣ .

(٣) راجع العيني: عقد الجمان جـ٣ ص١٨١ - ١٨٥، وابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٥ ص٢٧٤ .

(٤) هو ابن أمين الملك بن غنام الذي أسلم في واقعة سنة ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م مما يؤكد ما ذكرته سابقًا من أن إسلام ذمي لم يكن بالضرورة أن يتبع بإسلام أولاده أو أقاربه.

حوله عدة من الناس مشاةً في ركابه يتضرعون له ويسألونه ويقبلون رجله وهو معرض عنهم لا يعبأ بهم، بل ينهرهم ويصيح في غلمانه بطردهم، ولفت ثراء ونفوذ النصراني وزير السلطان المريني بالمغرب الأقصى أبي يعقوب بن يعقوب (٦٨٥-٧٠٦هـ/ ١٢٨٦-١٣٠٦م) وكان بمصر في طريقه للحج، فاجتمع بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون والأمراء، وانتهى الأمر بحظر استخدام أهل الذمة في مناصب الدولة أو إلزامهم بلبس العمائم الرزق للنصارى، والعمائم الصفر لليهود، وبعدم ركوب الخيول أو حمل الأسلحة أو شراء رقيق مسلم أو تنصير مسلم أو تهويده، ونودي بذلك في الفسطاط والقاهرة وبلاد الشام، فسعى النصارى بأموالهم في إبطال ما تقرر، فلم يجدوا مستجيبًا[1] ، فأسلم منهم جماعة على رأسهم: أمين الدين أمين الملك بن الغنام مستوفي الصحبة (ت٧٤١هـ/ ١٣٤٠م)، حرصًا من هؤلاء على بقاء رئاستهم[2] . وبالرغم من أن الوزير ابن الغنام قد أسلم في هذه الواقعة إسلامًا شكليًا، إلاّ أنه قد حسن إسلامه بعد ذلك، ورضيت أخلاقه، ونسخ بخطه عدة مصاحف كريمة[3] .

وهكذا فإن إظهار الذمة من الموظفين لقوة نفوذهم ومكانتهم في الدولة

---

(١) راجع بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق: زبيدة محمد عطا، طبعة السعودية جـ٩ ص٣٣٥-٣٣٦، والنويري: نهاية الأرب جـ٣١ ص٤١٦-٤١٩، وابن أيبك: كنز الدرر وجامع الغرر جـ٩ (الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر)، تحقيق هانس روبرت، المعهد الألماني للآثار بالقاهرة ص٤٧-٤٨، والعيني: عقد الجمان جـ٤ ص١٤٠-١٤١، والمقريزي: السلوك جـ١ قسم٣ ص٩٠٩-٩١٢، والمقفى جـ٢ ص١٩-٢٠، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٨ ص١٠٨-١٠٩، وساويرس بن المقفع: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، مجلد ٣ جـ٣ نشر د. أنطون خاطر ودازولد بورمستر ص١٣٤ .

(٢) النويري: نهاية الأرب جـ٣١ ص٤١٩، وابن أيبك: كنز الدرر جـ٩ ص٥١، والعيني: عقد الجمان جـ٤ ص١٤١، والمقريزي: السلوك جـ١ قسم٣ ص٩١١، والمقفى جـ٢ ص٥٣٦-٥٣٧، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٨ ص١٠٩ .

وورد إسلام بعض الموظفين لدى الناصر عند:

Stanley lane - Poole: A History of Egypt in the Middle Ages, p. 310 .

(٣) راجع الصفدي: الوافي جـ١٧ ص٨٨-٩٨، والمقريزي: المقفى جـ٤ ص٤٥٦-٤٦١، والسلوك جـ٢ قسم٢ ص٥١٣، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٩ ص٢٤٠ .

المملوكيـة كان عـاملاً من عوامل إصـدار قرارات بمنعهم من الـعمل الحكومي، وإسلام بعـضهم للحـفاظ على المناصب والمكانة، وإن كـانت هذه القرارات لم يعـمل بها فـعليًا، بدليل أن مـرسـومًا صـدر بهذا المنع بدمـشق سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م دون أن يطبق أو يسلم أحد بسببه[١] ، فورد مرسوم آخر إلى دمشق في السنة التـالية ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م بألاّ يسـتخدم أهـل الذمة في شيء من الجـهات بالدولة، وفي هذه المرة أسلم مـنهم جمـاعة «طـوعًا وكـرهًا»، وممن أسلم من المعروفين: علم الدين داود الإسرائيلي، والرشيد بن حَبَاشة الكَرَكي المستوفي، والعلم رزق الله صاحب الديوان[٢] ، وقد أورد المقريزي[٣] تفسيـرًا لهذا المنع يتفق مع مـا حدث سابقًا من أسـباب لهذا المنع، وذلك أن مـوظفي أهل الذمة اسـتـولوا على دواوين السلطـان والأمراء، وبنـوا الأملاك الجـليلة في القـاهرة والفسطاط، واقتنوا الجواري الجـميلة من الأتراك والمولدات، وتعاظموا بالملابس الفاخرة، وأكثروا من أذى المسلمين وإهانتهم، وظهر من بعضهم شموخ وتعاظم على المسلمين؛ فـتحرك الناس لذلك وتحـدثوا مع الأمراء الذين كلمـوا السلطان الصالـح صالح بن مـحمد بن قـلاوون (٧٥٢-٧٥٥هـ/ ١٣٥١-١٣٥٤م) الذي فرض قـيودًا على أهل الذمة تتصل بوظـائفهم وملابسهم، وغـير ذلك، وطلب السلطان عـدم إكـراه أحـد من الموظفين على الإسـلام، بل إن أرادوا الإسـلام أسلموا برضًا وطواعية، فأسلم بعضهم، كما أسلم غيرهم خوفًا من المسلمين.

وبعض من أسلم في السنة الماضيـة من أهل الذمة قد حسن إسـلامه ومنهم علم الديـن داود الإسـرائيلـي (ت٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م) الذي كـان نـاظرًا بديوان الجيش بالشام ثم تولى مع هذه الوظيفة نظر الدواوين كلها بالشام[٤] .

---

(١) راجع ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ٢ ص٤٨ .

(٢) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ٢ ص٦٠ .

(٣) المقريزي: السلوك جـ٢ قسم٣ ص٩٢١-٩٢٨ .

(٤) ابن كثيـر: البداية والنهاية جـ١٤ مجلد ٧ ص ٧٦٢، وذكر أنه اجـتمع له نظارة الجيش والدواوين، وهاتان الوظيفـتان لم تجتـمعا لأحـد قبله، وكان من أخـبر الناس بنظر الجيش وأعلمـهم بأسماء رجـاله ومواضع الإقطاعات. وراجع: ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ٢ ص٢٨٢ .

وقد صدرت تعليمات أخرى بدمشق بهذا المنع في سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م، و٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م دون أن تطبق أو ينتج عنها إسلام أحد[١] .

أما في سنة ٨٢٢هـ/ ١٤١٩م فبسبب ما حدث لمسلمي الحبشة من إذلال واضطهاد[٢] ، وبسبب تعاظم الذمة أيضًا الذي صوره ابن تغري بردي في «النجوم الزاهرة»[٣] نقلاً عن بعض الثقات من أهل الصعيد الذين يقوم بعضهم بتقبيل يد العامل النصراني بالبلد أو المشي في ركابه؛ طلبًا لتقويم صحيح للخراج المقرر على أرضه. وكان موظفو النصارى واليهود في سلطنة الملك المؤيد شيخ (٨١٥-٨٢٤/ ١٤١٢-١٤٢١م) يتعمدون التحكم في المسلمين بتعطيل مصالحهم وإذلالهم «فمنهم من يقوم بين يدي النصراني على قدميه، والنصراني جالس ساعات كثيرة حتى يقضي حاجته، بعد أن يدعو له ويتأدب معه تأدبًا لا يفعله مع مشايخ العلم، ومنهم من يقبل كتفه ويمشي في ركابه إلى بيته إلى أن تقضى حاجته. أما فلاحو القرى فإنه ربما النصراني المباشر يضرب الرجل منهم ويهينه»[٤] ويعذبه بدعوى خلاص مال أستاذه، وليس الأمر كذلك، وإنما يقصد التحكم في المسلمين لاغير، وهذا هو الذي يقع للأسير من المسلمين في بلاد الفرنج بعينه، لا زيادة على ذلك غير أنه يملك رقه[٥] .

---

(١) راجع ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ٢ ص٩٧ و٢٤٣ .

(٢) يذكر قاسم عبده قاسم في «أهل الذمة في مصر العصور الوسطى» ص ٩٨ . أن اضطهادات مسلمي الحبشة نتج عنها رد فعل مماثل في مصر. ويذكر في (ص١٠١) أن أباطرة الحبشة سلكوا طرقًا أربعة لصالح الأقباط أولها: التهديد بإغلاق منابع النيل الأزرق لمنع فيضان النيل من الوصول إلى مصر، وثانيها: شن الحملات الانتقامية على مسلمي الحبشة، وثالثها: إرسال السفارات الودية المحملة بالهدايا والرسائل إلى سلاطين المماليك، ورابعها: محاولة التحالف والاتفاق مع القوى الأوربية المسيحية للقيام بحملات مشتركة ضد القوى الإسلامية. واستطاعت السفارات والاتصالات الودية أن تحقق بعض النتائج الطيبة لصالح الأقباط . وراجع أحمد دراج: المماليك والفرنج ص٤٩-٥٤و٨٧-٩١ وخديجة الطناشي: العلاقات السياسية بين القوى الإسلامية والمسيحية في الحبشة خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، الجماهيرية العربية الليبية ص١٥٤-١٦٧ .

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٣ ص٢٣١ .

(٤) ابن تغري بردي: المصدر السابق ص٢٣١ .

(٥) ابن تغري بردي: المصدر السابق ص٢٣١ .

من هنا استقر الأمر ألا يباشر أحد من الذمة في ديوان السلطان أو الأمراء، وألزم الذميون بالزي الخاص بهم، وبعدم ركوب الخيل «وأنف جماعة من النصارى الكُتَّاب أن يفعلوا ذلك، وبذلوا جهدهم في السعي، فلما يجابوا إلى عودهم إلى ما كانوا عليه فتتابع عدة منهم في إظهار الإسلام، وصاروا من ركوب الحمير إلى ركوب الخيول المسومة، والتعاظم على أعيان أهل الإسلام، والانتقام منهم بإذلالهم، وتعويق معالمهم ورواتبهم حتى يخضعوا لهم ويترددوا إلى دورهم، ويلحوا في السؤال لهم ولا قوة إلا بالله»[1] .

ومما يدلل على نفوذ موظفي الذمة في تلك الفترة أن ابن تغري بردي اعتبر قرارات المؤيد شيخ السابقة فتحًا ثانيًا لمصر[2] .

ولكن كالعادة لم تنفذ قرارات السلطان المؤيد تنفيذًا دقيقًا، حيث ضيق على أهل الذمة في أيامه، ثم تراجعوا قليلاً قليلاً[3] ، الأمر الذي أدى إلى صدور قرار جديد من السلطان الأشرف برسباي سنة ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م يقضي بعدم استخدام أحد من أهل الذمة في ديوان من دواوين السلطان والأمراء «فلم يتم ذلك»[4] .

وحدث أخيرًا سنة ٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م منع لعمل الذميين في الدواوين لتعديهم على المسلمين، وكتب بذلك من مصر إلى بلاد الشام بهذا المنع، واستثنى الأطباء والصيارفة منه، وضيق على أهل الذمة في الملبس، وصمم السلطان الطاهر خشقدم (٨٦٥-٨٧٢هـ/ ١٤٦٠-١٤٦٧م) على هذا الأمر،

---

(١) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم ١ ص٤٩٤، وراجع ص٤٩٥، وابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص١٩٤-١٩٥، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٣ ص٢٣٠- ٢٣٢، وابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان جـ٢ ص٤٥٤-٤٥٥ . وذكر ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة جـ١٣ ص٢٣٢): إمكانية التأكد من صحة إسلام هؤلاء بإبعادهم عن المباشرة في أعمال الدولة فترة من الزمن ومتابعة إسلامهم.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج١٣ ص٢٣١ .

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص٢٧١ .

(٤) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم٢ ص٦١٠ . وابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص٢٧١، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٤ ص٨٤ .

فأسلم بسبب ذلك جماعة من المباشرين، ودام هذا الأمر سنة واحدة «وعاد كل شيء على حاله أولاً ، وبلغ السلطان ذلك، فلم يتكلم بكلمة واحدة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[1] .

وهكذا أدى منع أهل الذمة من العمل في بعض وظائف الدولة في بعض المرات إلى إسلام بعضهم، وكان إسلام بعضهم في بعض هذه الحالات إسلامًا شكليًا تحول بعد ذلك إلى إسلام حقيقي صحيح [2] ، بينما أظهر البعض الآخر الإسلام ظاهريًا، والله أعلم بباطنه، ولاشك في أنه كان بإمكان هؤلاء ألا يدخلوا في الإسلام - كما فعل غيرهم فظلوا على عقيدتهم- ولكنهم آثروا الوظائف والمناصب التي جعلت منهم أشخاصًا ذوي مكانة سامقة، يتطاولون بها على غيرهم ويتحكمون فيهم.

أما ما كان يصدر ما كان يصدر في بعض الأحيان من منع هؤلاء من ركوب الخيل[3] ، فإن قرارات مماثلة صدرت بمنع الفقهاء والقضاة لمثل هذه الجياد واقتصارها على كبار رجال الدولة كالسلاطين والوزراء، فعلى سبيل المثال نودي بالقاهرة سنة (٨٧٩هـ/ ١٣٨٨م) بأن الفقهاء والكتاب وأرباب الوظائف الصغيرة لا يركبون خيولاً عربية، بل يركبون بغالاً[4] . وتكرر هذا الأمر في السنة التالية مباشرة حيث نودي في القاهرة والفسطاط ومصر كلها بألاّ يركب أحد من المتعممين فرسًا سوى الوزير وكاتب السر[5] وناظر الخاص فقط، ومن عداهم

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٦ ص٢٥٠، وراجع من ص ٢٤٩، والسخاوي: وجيز الكلام جـ٢ ص٧٥٩، وهو معاصر وشاهد على هذا الحدث. وابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور جـ٢ ص٤١٣، وذكر سعي الذمة في تقديم مال ليعودوا كما كانوا.

(٢) لمزيد من الأخبار الأخرى سوى ما ذكرته سابقًا راجع المقريزي: السلوك جـ٤ قسم٢ ص٦٥٢، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٤ ص٢٩٥-٢٩٦، والمنهل الصافي جـ٥ ص٢٨٩ و٢٩٠-٢٩١ .

(٣) راجع إلى ما سبقت الإشارة إليه في المتن عند ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٤ مجلد ٧ ص٣٤٨ و٣٦٠ و٣٨٢، والمقريزي: السلوك جـ٣ قسم٣ ص١٠٤٠، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٥ ص١٥٦، وحوادث الدهور جـ١ ص٢٥٤، وابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم١ ص٥٥١ .

(٤) المقريزي: السلوك جـ٣ قسم٢ ص٦٧٢، وابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ١ ص٢٦٥ .

(٥) كاتب السر وظيفة يتولى صاحبها رئاسة ديوان الإنشاء، أي ديوان الرسائل. راجع القلقشندي: صبح الأعشى جـ١ ص١٠٣-١٤٠، وراجع ص ٣٠ .

فإنه يركب البغال، ولا يركب فقيه فرسًا[1] . وحدث هذا أيضًا سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م بزيادة هي أنه من وجد عنده فرس من المتعممين أخذت منه[2] .

وحدث في سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م أن منع القضاة والفقهاء والكتاب والتجار وأجناد الحلقة[3] من ركوب الجياد والبغال؛ إلاّ لمن كان في خدمة السلطان أو الأمراء الكبار، فامتنع الجميع، ثم أذن لطوائف في الركوب بمراسيم سلطانية، كتبت في ديوان الإنشاء «فكان الرجل يحمل مرسومه معه خشية من تعرض المماليك له»[4] . بل إنه تقرر في سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٨م عدم بيع الخيول للمتعممين أو للجنود من أولاد الناس[5] ، ثم بطل ذلك[6] .

فلم يكن الذميون الموظفون وغيرهم إذًا مضطهدين عندما ألزموا في بعض السنين بعدم ركوب الخيل، إذ إن هذا الإلزام كان للفقهاء والقضاة وغيرهم أيضًا. كما أن ارتداء موظفي أهل الذمة للملابس الشبيهة بملابس القضاة[7] . كان عاملاً قويًا من عوامل إلزامهم ببعض الملابس المعينة، إضافة إلى ما سبق ذكره من تعالي بعضهم وتعاظمهم على المسلمين وإساءتهم لمناصبهم وعملهم بالدولة. كما تجدر الإشارة إلى الأمور التنظيمية التي لجأت إليها السلطة

---

(١) المقريزي: السلوك جـ٣ قسم٢ ص٧٢٧، وابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ٣ ص٣٥٠، وابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ١ ص٣١٧ .

(٢) المقريزي: السلوك جـ٣ قسم٢ ص٧٣٣ .

(٣) أجناد الحلقة فئة من فئات الجيش المملوكي، وتتكون من محترفي الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم، وهي أقرب الفئات إلى نظام الجيش الثابت في العصور الحديثة، ومرتباتها من ديوان الجيش. محمد قنديل البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية للكتاب ص١٦ .

(٤) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم١ ص ٨١، وابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم٢ ص٧٩٢ .

(٥) أولاد الناس هم أولاد المماليك الذين ولدوا أحرارًا .

(٦) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم٢ ص٧٩٦ .

(٧) راجع المقريزي: السلوك جـ٤ قسم١ ص٤١٦، وابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص١٤١ ، وابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ٢ ص٤٠١ .

المملوكية في بعض الأحيان قد امتدت إلى المرأة المسلمة فألزمتها بزي معين[1] ، وحدَّت من خروجها في بعض السنوات[2] ؛ فلم يكن الذميون إذًا بدعًا من هذه التوجهات المملوكية التي تعرض لها كل طوائف المجتمع المملوكي، ولم يقصد بها طائفة بعينها، لا تتجاوزها أو تتخطاها.

٤- التحول للإسلام هربًا من بعض العقوبات:

لجأ بعض أهل الذمة من موظفي الدولة وغيرهم إلى النطق بالشهادتين والتحول إلى الإسلام فرارًا من إحدى العقوبات أو التعزيزات[3] الواجبة عليهم لوقوعهم في بعض المخالفات التي تنقض عهد الذمة[4] وتستوجب إقامة الدولة للحد المفروض في هذه المخالفة، ومن ذلك أنه في سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م سب

(١) راجع المقريزي: السلوك جـ٢ قسم٢ ص٥٣٦، وقسم٣ ص٨١٠، والخطط جـ٢ ص٣٢ ، وابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٤١٨، وابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ١ ص٣٣٥، وابن إياس: بدائع الزهور جـ٣ ص٦٧ .

(٢) راجع المقريزي: السلوك جـ٢ قسم١ ص٥١ وجـ٤ قسم٢ ص١٠٣٣، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٨ ص١٨٢ .

(٣) التعزير: تأديب لا يبلغ الحد الشرعي كتأديب من شتم بغير قذف. المعجم الوسيط جـ٢ ص٥٩٨.

(٤) ذهب الإمام أحمد إلى قتل الذمي زنى بمسلمة وإن أسلم على أساس أنه نقض العهد مع المسلمين، أما المرأة فإن كانت طاوعته أقيم عليها الحد، وإن كان استكرهها فلا شيء عليها. وذهب الإمام الشافعي إلى قتل من نقض عهده من أهل الذمة بالزنا بمسلمة أو بفتنة المسلمين عن دينهم، فإذا أسلم لم يقتل إلاّ إذا كان في دين المسلمين أن من فعل هذا الفعل قتل حدًا أو قصاصًا. أي حده حد المسلم. ومذهب مالك يقضي بقتل الذمي الزاني بمسلمة إن كانت حرة، وبعقوبته عقوبة شديدة إن كانت أمةً، فمذهبه إيجاب القتل لبعض أهل الذمة الذين يفعلون ما فيه ضرر على المسلمين، أما مذهب أبي حنيفة فينص على أن عهد أهل الذمة لا ينتقض إلاّ أن يكونوا أهل شوكة ومنعة يتمنعون بذلك على الإمام ولا يمكنه إجراء أحكامنا عليهم. راجع هذه الآراء وأدلتها كلها عند ابن تيمية في: الصارم المسلول على شاتم الرسول، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، بدون ذكر للطبعة إلا سنة ١٤٠٠هـ ص٢٦٧-٢٦٨ و٢٧٠-٢٧٩ و٢٩٠ و٣٦٣ و٣٧٧ - ٣٧٩ و٤٠١ و٤٢٦-٤٣١ . ومن سبَّ النبي ﷺ أو أحدًا من الأنبياء وجب قتله عند أحمد ومالك، والشافعي. فإن أسلم قبل القتل باختيار وطواعية غير مكره لم يقتل عند أحمد ومالك، وعند الشافعي في قول آخر يقتل وإن أظهر الإسلام والتوبة. أما أبو حنيفة وأصحابه فقالوا: لا ينتقض العهد بالسبِّ ولا يقتل الذمي بذلك، لكنه يعزر على إظهار ذلك كما يعزر على إظهار المنكرات التي ليس لهم فعلها، إلا إذا تكرر سبَّ النبي ﷺ من أهل الذمة، فإنه يقتل وإن أسلم. راجع ابن تيمية: الصارم المسلول ص٤-٢٦ و٢٥٤-٢٥٨ و٢٧٠ و١٩١-٢٩٩ و٣٠٠-٣٠٣ و٣١١-٣١٣ للوقوف على هذه الأقوال وأدلتها.

نصراني من أهل السويداء[1] الرسول ﷺ وشهد عليه جماعة، واستجار النصراني بأحد أمراء العرب ويدعى أحمد بن حجي فآواه ومنعه من الناس، فتوجه الشيخ ابن تيمية وشيخ دار الحديث بدمشق زين الدين الفارقي إلى ناب السلطنة عز الدين أيبك الحموي، وكلماه في أمر الساب للنبي ﷺ، فظن النائب عز الدين الحموي أن الشيخين وراء ثورة الناس فضربهما أمامه ثم حبسهما، وقدم النصراني فأسلم، وأثبت في المجلس أنه بينه وبين الشهود عداوة، فحقن النائب دمه، واستدعى الشيخين فأرضاهما وأطلقهما، ولحق النصراني بعد ذلك ببلاد الحجاز، وصنف الشيخ تقي الدين ابن تيمية في هذه الواقعة كتابه «الصارم المسلول على ساب الرسول ﷺ»[2]. وفي دمشق أيضًا سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م أسلم جماعة من اليهود كانوا قد استهزأوا بالإسلام، فأخذوا إلى نائب السلطنة سيف الدين أيتمش[3] (ت٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م) فسلمهم إلى القاضي الحنبلي جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن محمد[4] (ت٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م) فأسلموا على يديه، وأسلم في اليوم التالي ثمانية آخرون «فأخذهم المسلمون وطافوا بهم في الأسواق يهللون ويكبرون، وأعطاهم أهل الأسواق شيئًا كثيرًا وراحوا بهم إلى الجامع فصلوا»[5].

ومنه أيضًا أنه في سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م اتهم بعض نصارى بالكرك من موظفي الدولة وغيرهم بممالأة الفرنج القبارصة والتعاون معهم في اعتدائهم على

---

(١) السويداء: قرية بحوران من نواحي دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٣ ص٢٨٦.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٤ مجلد ٧ ص٣٤٣-٣٤٤.

(٣) الأمير سيف الدين أيتمش بن عبد الله كان أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون، وترقى إلى أن صار من جملة أمراء مصر، وولي عدة وظائف بمصر، ثم نقل إلى نيابة دمشق، فنيابة طرابلس. راجع ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٣ ص١٣٧-١٣٨.

(٤) لم يرد ذكر اسم هذا القاضي في الواقعة، وبحثت حتى اهتديت إليه، وترجم له ابن حبيب (تذكره النبيه جـ٣ ص٢٩٥ و٣١٨) وذكر أنه تولى القضاء بدمشق عدة سنين، وكان حسن السيرة والأخلاق، لين الجانب، كثير التواضع، لا يكترث بملبس ولا بمركب، وكان يركب حمارة تعرف بصاحب الحمارة. راجع المقريزي: السلوك جـ٣ قسم١ ص١٦٧، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١١ ص٨٠.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٤ مجلد ٧ ص٦٦٣.

الإسكندرية في السنة السابقة، وكذلك اتهم بعض نصارى الثغر بهذه التهمة، وبإعانة القبارصة على نهب الإسكندرية، ولما خرجوا منها خاف بعض الذميين من النصارى بها فأسلموا- وكذلك أسلم بعض نصارى الكرك- وبخاصة أن الدولة ألزمت النصارى بتقديم بعض الأموال من أجل فكاك أسرى المسلمين من أيدي الفرنج[1] . وبعض هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام، حسن إسلامهم وأثنى عليهم[2] . كذلك أسلم تاج الدين النصراني معلم أولاد كريم الدين بن مكانس[3] (ت٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م) الكتابة؛ خوفًا من بكْلَمِش أمير أخور[4] (٨٠١هـ/ ١٣٩٨م) سنة ٧٩٤هـ/ ١٣٩١م، ولبس زي الجندية وخدم عنده[5] .

وحدث في سنة ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م أن اجتمع عدة من فقهاء القاهرة عند الأمير فخر الدين عبد الغني ابن أبي الفرج الأستادار في أمر نصراني يدعى محب الدين الخضري (ت٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م) ادعى عليه بما يوجب إراقة دمه[6] ،

---

(١) راجع في هذا المقريزي: السلوك جـ٣ قسم١ ص١٠٤-١٠٦ و١٠٧-١٠٨، وابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ٢ ص٢٧٠-٢٧١ و٢٧٣، وابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص٣٤٢-٣٤٣ وجـ٣ ص٣١٣-٣١٤ .

(٢) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم٢ ص٦٥٢، وابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص٣١٣-٣١٤، وابن تغري بردي: حوادث الدهور جـ٢ ص٣٩٦، والنجوم الزاهرة جـ١٤ ص٢٩٥-٢٩٦، والمنهل الصافي جـ٥ ص٢٨٩-٢٩٢، والسخاوي: التبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية ص٤٢٢، والنعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: جعفر الحسيني، دمشق جـ٢ ص٥٤، وراجع ابن إياس: بدائع الزهور جـ٣ ص٨٤ .

(٣) كريم الدين بن مكانس تولى نظر الدولة، ثم أصبح مشير الدولة، وكان ظالمًا للغاية. راجع المقريزي: السلوك جـ٣ قسم١ ص٣٤٣، وقسم٢ ص٤٤٤ و٥٤٤ و٦٢٣ و٦٥٩ و٧٠٩، وقسم٣ ص١٠٧٢ .

(٤) الأمير بكلمش تولى الإشراف على إسطبل السلطان برقوق فترة ثم تولى إمرة سلاح حتى سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م وكان فيه جبروت وكبر. راجع المقريزي: السلوك جـ٣ قسم٣ ص٩٧٤، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص٢٦٠-٢٦١ .

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٤٣٥، ولم يرد هذا الخبر عند غير ابن حجر، ويبدو أن لمظالم الصاحب كريم الدين بن مكانس المشهور بها دورا في الخلاف بينهما ولم يذكر ابن حجر سبب هذا الخلاف. وقد قبض على ابن مكانس سنة ٧٩٤هـ/ ١٣٩١م بدلالة بعض النصارى. المقريزي: السلوك جـ٣ قسم٢ ص ٧٦٨ .

(٦) لم تذكر المصادر ما فعله هذا النصراني.

فتشطرت البينة عليه، ولم يكل النصاب، فحكم قاضي القضاة المالكي جمال الدين عبد الله بن مقداد[1] (ت٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م) بتعزيره، فعندما استعد ليضرب، أسلم، فأنعم عليه، وترك لحالة، وتسمى بمحمد[2] . وفي سنة ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م اشتكى أهل دمياط من كاتب نصراني ملكي يدعى ابن الملاح يتجاهر باللواط، ويبالغ في إظهار الفاحشة، ولا يستطيع والي البلد فعل شيء له، لمكانة الكاتب النصراني من ناظر الخواص، ورفع أهالي دمياط أمر الكاتب ومفاسده للسلطان الأشرف برسباي الذي عقد مجلسًا، حضره الكاتب، وفيه قامت البينة عليه، فأسلم، ولقب «محب الدين» واشترط عليه الشافعي أنه لو ارتكب شيئًا مما ارتكبه قبل ذلك سينال عقابًا شديدًا، فالتزم الكاتب، وتوجه من جديد إلى دمياط «وحسنت سيرته بالنسبة إلى ما كان»[3] .

كما أنه في سنة ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م وقف بعض القضاة على اسم (محمد) و(أحمد) تحت درجة من درجات منبر كنيسة لليهود بقصر الشمع في وسط مدينة الفسطاط، يقف عليها خطيب اليهود، فعزر ثلاثة من يهود هذه الكنيسة كانوا يتعمدون الصعود على المنبر ليدوسوا اسم النبي ﷺ، فأسلم أحدهم[4].

كما أن أحد موظفي الدولة من اليهود ويدعى صدقة السامري ظلم الناس بدمشق، فلما قبض عليه سنة ٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م وحبس بقلعتها، أسلم هربًا من تنفيذ أية عقوبة يستحقها، وبالفعل تم العفو عنه، فأطلق سراحه بعد موافقة السلطان الأشرف قايتباي، وتوجه صدقة بعد ذلك إلى الجامع الأموي حيث أدى الصلاة فيه[5] . وأوشك يهودي يسمى «خضير» كان بالصليبة أن يسلم سنة

---

(١) للوقوف على ترجمة قاضي القضاة ابن مقداد المالكي المفتي، الذي كان المعول عليه في الفتاوى مدة سنين بمصر. راجع المقريزي: السلوك جـ٤ قسم١ ص٤١٦، وص٥٤٤ . وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٣ ص٢٩٧-٢٩٨ .

(٢) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم١ ص٤١٦ وص٥٤٤ . وابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص١٤١ .

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص٤٠٠ وراجع من ص ٣٩٩ .

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٤ ص١٨٦-١٨٧ و١٩٦ .

(٥) ابن طولون: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ص١٢٩ .

٩٢٠هـ/ ١٥١٤م إثر اتهامه بقتل أحد المرضى من أولاد الناس بعد وصف حقنة له، مات بعدها بيومين، فقبض على اليهود الذي يدعي الطب، فكاد أن يسلم هربًا من هذا الاتهام والعقوبة المترتبة عليه، فلما لم تثبت التهمة عليه، وأن المريض مات عقيب الحقنة بأجله عاد اليهودي إلى دينه[١] .

وقد اضطرت جماعات من أهل الذمة أن يتحولوا إلى الإسلام في وقت واحد، فرارًا من العقوبة أيضًا، كما حدث من إسلام جماعة من النصارى هربًا من اتهامهم بإشعال النيران بمصر أو الشام في بعض المرات[٢] ؛ ففي سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م قام النصارى بمصر بإحراق العديد من الجوامع والمساجد والفنادق التجارية والبيوت وغيرها بالقاهرة والفسطاط ردًا على ما قام به بعض العامة بالقاهرة من اعتداءات على بعض الكنائس، وقد كان كثير من الأمراء وغيرهم يعينون من يقوم بحراسة بيوتهم خوفًا عليها من حرقها، ووقف المؤرخ النويري على ذلك بنفسه[٣] . ولم يتهم أحد بهذا الحريق في بدايته، غير أنه قد

---

(١) راجع ابن إياس: بدائع الزهور جـ٤ ص٣٨٦، وأضاف أنه قد قيل: إن اليهودي دفع مالاً لينجو من القتل.

(٢) تجدر الإشارة هنا إلى حدوث حرائق عديدة بمصر والشام في عصر سلاطين المماليك، ولم يتهم أحد فيها مثل ما حدث سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م و٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م و٦٩١هـ/ ١٢١٩م من حرائق وأماكن مختلفة من القاهرة دون اتهام لأحد. راجع في ذلك النويري: نهاية الأرب جـ٣١ ص١٢٧ و٢٢٥، وابن الفرات: تاريخ ابن الفرات جـ٨ ص١٣٥، والمقريزي: السلوك جـ١ قسم٣ ص٧٤١ و٧٧٧ . وحدثت حرائق بالشام أيضًا أكثر مما حدث بمصر ولم يتهم أحد أيضًا في سنوات ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م و٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م، و٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م و٧٥٢هـ/ ١٣٥١م و٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م و٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م و٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م و٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م و٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م. راجع النويري: نهاية الأرب جـ٣١ ص ٨٩ وجـ٣٣ ص٢٦٧، وابن الفرات: تاريخ ابن الفرات جـ٧ ص٢٥٠، وابن كثير: البداية والنهاية جـ١٤ مجلد ٧ ص٥٢٩و٦٢٦ و٦٦٣ و٦٨٣ و٦٨٤ و٦٨٥، والمقريزي: السلوك جـ١ قسم٣ ص٧٠٩، وابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ١ ص٣٥٦ و٤٠٧ وجـ٢ ص١٩ و٣٢ و٩٦ و٩٨ وجـ٣ ص٥٨٣ و٥٨٩ و٦٦١ . أما الحرائق التي نسبت للنصارى بالفسطاط والقاهرة سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م فلم يرد حديث عن عرض الإسلام عليهم أو إسلام بعضهم؛ بل عاقب الظاهر بيبرس بعضهم. راجع النويري: نهاية الأرب جـ٣٠ ص١١٤، والصفدي: الوافي بالوفيات جـ١٠ ص٣٢٤-٣٢٥، والمقريزي: السلوك جـ١ قسم٢ ص٥٣٥، وابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٣ ص٤٤٣-٤٤٥، وابن العماد: شذرات الذهب جـ٥ ص٣٢٢ .

(٣) النويري: نهاية الأرب جـ٣٣ ص١٩ .

وجد بعض النصارى يرمون نيرانًا في بعض الدُور، فأمسكوا وضربوا وأقروا، ثم تراجعوا عن إقرارهم، فأطلق سراحهم، هذا والسلطان الناصر محمد بن قلاوون «ينكر أن يكون ذلك من فعل النصارى» ثم وجد ثلاثة من النصارى في زي المسلمين يقصدون إحراق الجامع الظاهري[1] وجيء بهم إلى والي القاهرة سنجر الخازن السروري[2] فأطلق سراحهم لعدم ثبوت الأدلة عليهم، ولكنه لما فتشت بيوتهم عثر على آلات الحريق وفتايل معمولة بالزيت والكبريت، وغير ذلك، فاعترفوا، واعترف غيرهم، فعادت الدولة المملوكية إلى التضييق عليهم في الزي والعمل في الدواوين «ومنع النصارى من المباشرات أيامًا قلائل، وأسلم بعض كُتّاب الأمراء، فاستقروا على وظائفهم، ثم استقر سائر المباشرين من النصارى على مباشراتهم»[3] .

وهنا وجدنا عدم تنفيذ الأمراء بإبعاد النصارى عن وظائفهم بالدولة، فبعضهم ظل كما هو، وأسلم بعض هؤلاء الموظفين ومنهم الكتاب السني ابن ست بهجة (ت٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م)، كما أسلم غيرهم للنجاة بأنفسهم من عقوبات الدولة أو من تهور بعض العامة عليهم[4] .

وفي سنة / ٧٤٠ ١٣٣٩م أسلم بعض أهالي دمشق من النصارى بعد اتهامهم بإحداث حريق[5] بها نال العديد من مساجدها ومدارسها وأسواقها،

---

(١) هو جامع الظاهر بيبرس بالحسينية الذي بُدئ بناؤه سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م وانتهى منه سنة ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م. راجع المقريزي: الخطط جـ٢ ص٢٩٩ .

(٢) علم الدين سنجر الخازن من مماليك المنصور قلاوون، وترقى حتى صار خازنًا ثم شاد الدواوين ثم والي البهنسا فوالي القاهرة، وكان حسن السيرة، وتوفي سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م . المقريزي: السلوك جـ٢ قسم٢ ص٣٨٧-٣٨٨ .

(٣) النويري: نهاية الأرب جـ٣٣ ص٢٧ . وراجع ص١٦-٢٨ .

(٤) المقريزي: السلوك جـ٢ قسم١ ص٢٢٧ وراجع من ص٢١٧-٢٢٨ . وابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ١٠ ص٢٨٠، والنجوم الزاهرة جـ٩ ص٦٠ وراجع عن هذه الحادثة من ص٥٤-٦٠، وذكر أنه لم يعرض لأي يهودي بمصر في هذه الحادثة. وراجع أيضًا ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٤ مجلد٧ ص٤٨٨ .

(٥) للوقوف على تفاصيل ذلك الحريق راجع الذهبي: دول الإسلام، تحقيق: فهيم شلتوت ومحمد مصطفى، إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر جـ٢ ص٢٤٦، وابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، منشورات المطبعة الحيدرية=

وذهب للتجار مال كثير، وخربت به أماكن عديدة، وظهر أن ذلك من فعل النصارى، فقبض على أكابرهم وأقروا واعترفوا به، فقتل بعضهم «ودخل منهم جماعة في دين الإسلام»[1] .

وبعد فهذه هي حالات التحول للإسلام من قبل بعض أهل الذمة للفرار من بعض العقوبات التي قررت على بعضهم؛ تنفيذًا لبعض المخالفات التي وقعوا فيها، وأظن أن هذه الحالات كانت قليلة قياسًا إلى حالات التحول للإسلام عن اختيار وطواعية واقتناع، كما أظن أن بعض هؤلاء - كما سبقت الإشارة - قد حسن إسلامه، كما أظن أن السلطة المملوكية تأكدت من وقوع المخالفات التي يعاقب عليها أهل الذمة بدليل أن هناك حالات عديدة لم تسند فيها هذه المخالفات لأحد، وهناك حالات أخرى انقسمت الآراء بشأنها؛ ومن ثم لم تقم الأدلة على بعض أهل الذمة؛ فلم يعاقبوا أو يضطروا إلى الإسلام هربًا من تلك العقوبات[2] .

المبحث الثاني: تحول بعض الفرنجة للإسلام وأسبابه

أشارت مصادرنا التاريخية المملوكية إلى حالات عديدة تحول فيها بعض الفرنجة للإسلام نتيجة بعض المناقشات أو عرض الإسلام على بعض الأسرى من هؤلاء الفرنج ودعوتهم للإسلام، أو رغبة في الإقامة في دار الإسلام، أو لغير ذلك من أسباب دعت هؤلاء الفرنجة إلى الإسلام.

وبدئ في إسلام بعض الفرنج سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م حيث أسلم على يد السلطان الظاهر بيبرس عدد من الفرنج المستأمنين[3] . وفي سنة ٦٦٤هـ/

= النجف جـ٢ ص٤٧٠، وابن حبيب: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه جـ٢ ص٣١٣-٣١٥، وابن كثير: البداية والنهاية جـ١٤ مجلد ٧ ص٥٩٦-٥٩٧، والمقريزي: السلوك جـ٢ قسم٢ ص٤٩٥-٤٩٨، والمقفى جـ٢ ص٦١٥، وابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ١ ص١١٥-١١٧ و١٢٧ و١٨٥ و١٩٢ .

(١) الذهبي: دول الإسلام جـ٢ ص٢٤٦، وابن الوردي: تاريخ ابن الوردي جـ٢ ص٤٧٠، وابن حبيب: تذكرة النبيه جـ٢ ص٣١٣ .

(٢) راجع أمثلة أخرى لدى المقريزي: السلوك جـ٢ قسم٣ ص٨١٥-٨١٨، وقارنه بما في الخطط جـ٢ ص٣٠-٣١، وابن تغري بردي: حوادث الدهور جـ٢ ص٥٤٨ .

(٣) المقريزي: السلوك جـ١ قسم٢ ص٥١١ . والمستأمن هو الحر الذي دخل دار الإسلام بأمان.

١٢٦٥م أسلم اثنان من فرنج صَفَد[١] بعد فتحها؛ أحدهما كان رسول الفرنج إلى بيبرس، واختار هذا الرسول أن يقيم عند السلطان ويسلم «فأسلم وأقطعه السلطان إقطاعًا وقربه»[٢]. وعندما وصلت رسل الإمبراطور البيزنطي[٣] القاهرة سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م في سفارة إلى السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون أسلم منهم اثنان هما: أقسُنْقر وبَهَادُر وأنعم عليهما[٤]. وذكر ابن قاضي شهبة أن الأمير سنقر الرومي، سيف الدين (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) كان عارفًا بالنبات والعقاقير والعِلَل، واتصل بالعديد من الأمراء ونال منهم مالاً كثيراً[٥].

وأسلم سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م صبي من الفرنج كان قد وقع أسيرًا في معركة عند ميناء (صيدا) بين المسلمين والفرنج، ولم يرض بتسليمه للفرنج مع من سلموا إليهم من الأسرى في مقابل دفع مال للمسلمين، فأسلم الصبي وبقي مع المسلمين[٦].

وحدث في سنة ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م أن قدم العثمانيون هدايا للمماليك في صحبتها جماعة من الفرنج من الأسرى، فأرسل بهم السلطان العثماني بايزيد الأول ابن مراد (٧٩١-٨٠٥هـ/ ١٣٨٩-١٤٠٢م) إلى الظاهر برقوق في سلطنته الثانية (٧٩١-٨٠١هـ/١٣٨٨-١٣٩٨م) فأسلم منهم اثنان[٧].

---

(١) صَفَد: مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام، وهي من جبال لبنان. ياقوت: معجم البلدان جـ٣ ص٤١٢.

(٢) النويري: نهاية الأرب جـ٣٠ ص٢٨٩. والمقريزي: السلوك جـ١ قسم٢ ص٥٤٨. ويذكر المحقق الكبير محمد مصطفى زيادة في تعليقه على هذا الخبر أن الفارسين الفرنجيين اللذين أسلما كان أحدهما فارسًا من الداوية والآخر من فرسان الإسبتار.

(٣) هو الإمبراطور البيزنطي أندرونيق الثاني وأرسل إلى السلطان الناصر يطلب مودته ووساطته لدى العثمانيين المهاجرين على أراضي الدولة البيزنطية بآسيا الصغرى. راجع المقريزي: السلوك جـ٢ قسم١ هامش (٢) ص٢٥٩، تعليق محمد مصطفى زيادة.

(٤) النويري: نهاية الأرب جـ٣٣ ص٢٢٩، والمقريزي: السلوك جـ٢ قسم١ ص٢٨٢-٢٨٣.

(٥) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ١ ص٥٨٢.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٤ مجلد ٧ ص٦٨٤.

(٧) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٥٢٥، وابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ١ ص٤٤٨.

وفي محاولة فتح قبرص سنة ٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م أسر خمسة من القبارصة عرض الأشرف برسباي عليهم الإسلام، فأسلم منهم أربعة[١] .

وحدث سنة ٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م أن دار نقاش بين بعض المسلمين وبعض أسرى من قبرص التي فتحت في هذه السنة في سلطنة الأشرف برسباي، وأدى هذا الحوار إلى إسلام جماعة من أسرى قبرص من بينهم امرأة[٢] . ويذكر المقريزي أنه في السنة السابقة نفسها قام أحد الفرنجة المسلمين ممن تزيا بزي الأجناد بنصب حبل من أعلى مئذنة المدرسة الناصرية حسن[٣] تحت القلعة وربطه بأعلى الأشرفية[٤] من قلعة الجبل، ومشى أمام السلطان الأشرف برسباي والأمراء والناس على هذا الحبل من المدرسة الناصرية إلى الأشرفية[٥] . ووفد في سنة ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م إلى القاهرة سبعة من أكابر الفرنج أرسلهم صاحب قبرص، فأسلم منهم اثنان «وطلب الخمسة أن يكونوا في الخدمة مثل الأجناد»[٦]. كما أدى عرض الإسلام عرضًا طيبًا على أسرى الفرنج الذين أرسل بهم السلطان العثماني مراد الثاني (٨٢٤-٨٥٥هـ/ ١٤٢١-١٤٥١م) إلى السلطان المملوكي الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ/ ١٤٣٨-١٤٥٣م) سنة

---

(١) ابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، جـ٣ ص٨٨ .

(٢) راجع ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٤ ص١٣٧-١٣٨ .

(٣) جامع الملك الناصر حسن أو مدرسة الناصر حسن تجاه قلعة الجبل، بدئ في عمارته سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م واستمر العمل فيه لمدة ثلاث سنوات، وهو من أضخم مساجد مصر عمارة، وأعلاها بناية. راجع المقريزي: الخطط جـ٢ ص٣١٥-٣١٦ .

(٤) المدرسة الأشرفية هي المدرسة التي بناها الأشرف شعبان بن حسين تجاه قلعة الجبل بداية من سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م وكانت مدرسة من أفخر المدارس، غير أن الناصر فرج بن برقوق هدمها سنة ٨٢١هـ/ ١٤١٨م وأنشأ مكانها المارستان المؤيدي الذي انتهى من عمارته سنة ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م. راجع المقريزي: الخطط جـ٢ ص٤٠٧، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١١ ص٥٥، وابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم٢ ص١٨٣ .

(٥) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم٢ ص٧١٣، وابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ٣ ص٧٣، وأشار (ص٧٤) إلى إسلام هذا المملوك المدعو «يشبك» سنة ٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م، وإلى أنه كان ضمن مماليك السلطان برسباي.

(٦) ابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان جـ٣ ص ١٢ .

٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م إلى هؤلاء الأسرى جميعًا طواعية واختيارًا، فأنزل السلطان جماعة منهم بالديوان السلطاني، وفرق جماعة أخرى على الأمراء[١] .

وفي سنة ٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م غنم الأسطول المملوكي مركبًا لجنوة[٢] به مائة وخمسون إفرنجيًا، فيهم قنصل جنوة «فضرب بعضهم وأسلم طائفة ففرقوا على الأمراء، وفدى القنصل نفسه»[٣] . وحدث مثل هذا في سنة ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م حيث هاجمت بعض مراكب الفرنج الإسكندرية أيضًا، فتصدى لها الأسطول المملوكي وانتصر عليهم وقتل منهم جماعة كثيرة، وأسر من بقي منهم حيًا، فلما عرضوا على السلطان الغوري أمر بسجنهم، فأسلم خمسة منهم[٤] .

وبالإضافة إلى هؤلاء الأسرى الذين أسلموا، إما للنجاة بأنفسهم من القتل أو السجن أو للرغبة في الانضمام لمماليك وأجناد السلطان المملوكي، أو ربما للرغبة في الإسلام نفسه؛ خاصة أن هناك خيارات أخرى كانت أمام هؤلاء غير القتل، فهناك السجن أو العمل في خدمة الأجناد، وهو ما اختاره بعض الأسرى من هؤلاء الفرنج، بالإضافة إلى هؤلاء الأسرى الذين أسلموا، هناك تجار فرنجة أسلموا عن طواعية واختيار كاملين، ففي سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة (٧٠٩-٧٤١هـ/ ١٣٠٩-١٣٤٠م) قدم تاجر فرنجي مصر، فأعجبته وأسلم وعرف بآقسنقر الرومي، وأنعم عليه السلطان بإمرة عشرة[٥]، ومازال إلى أيام الكامل شعبان (٧٤٦-٧٤٧هـ/ ١٣٤٥-١٣٤٦م) فتقرب إليه آقسنقر الرومي[٦] . كذلك أسلم دمرداش الإقريطشي التاجر، وأنعم عليه

(١) راجع ابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص٢٣٤، وابن إياس: بدائع الزهور جـ٢ ص٢٤٧ .

(٢) تعرضت الإسكندرية سنة ٨٦٣هـ/ ١٤٥٨م في عهد الأشرف إينال إلى عدوان فرنجي نسب إلى الجنوبيين. راجع ابن إياس: بدائع الزهور جـ٢ ص٣٥٣ .

(٣) السخاوي: وجيز الكلام جـ٢ ص٧٢٨ . وذكر ابن إياس الخبر (بدائع الزهور جـ٢ ص٣٥٦) دون أن يشير إلى إسلام من أسلم، وأنه طلب من القنصل ١٠٠ ألف دينار، وتعهد بمال يدفعه بعد إطلاق سراحه، وأن بعض الأسرى قتل وبعضهم سجن.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور جـ٤ ص١٦٤، وراجع ص ١٦٣ .

(٥) أمير عشرة: رتبة عسكرية يقوم حاملها برئاسة عشرة من الفرسان أو المماليك. القلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص١٥ .

(٦) المقريزي: السلوك جـ٢ قسم٣ ص٧١٦ .

السلطان الغوري سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م بإمرة عشرة وجعله باش العسكر «وكان ذلك من غلطات الزمان»[١] .

وقد رفض السلطان الغوري سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م إسلام تاجر يهودي فرنجي يقال له يوسف، كان من تجار الفرنج، وكان يعرف اللغة التركية، وعمل بدار الضرب، وكان عليه مال للدولة بلغ اثني عشر ألف دينار، وعندما طولب به ومطل عن سداده عذب فنطق بالشهادتين، فلم يلتفت السلطان الغوري إلى إسلامه وعزم على تسديد اليهودي لما عليه من مال[٢] .

ولدينا أخبار عن بعض المترجمين الذين يتولون أمر الترجمة عن اللغات الأوربية للسلطان أو للأمراء أو لغيرهم وأسلموا، ويذكر أحد الباحثين[٣] أن من المناصب المهمة في العصر المملوكي منصب كبير التراجمة وهو أشبه بمنصب وزير الخارجية في عصرنا الحالي، فهو الذي يناط به مهمة استقبال الرسل والسفراء والرحالة والحجاج الأوربيين الذين يفدون إلى القاهرة نظراً لمعرفته باللغة اللاتينية واللغات الأوربية الأخرى، فضلاً عن إلمامه باللغة العربية والتركية، وكان لكبير التراجمة مساعدون من التراجمة يتولون مهمة الترجمة للرحالة والحجاج الأوربيين بالأماكن المقدسة التي يزورنها بمصر والشام.

وهؤلاء المترجمون كانوا يهوداً أو نصارى أوربيين، وتحولوا إلى الإسلام، ولم تشر مصادرنا إلى ملابسات إسلامهم، لكنهم كانوا قد تحولوا إلى الإسلام عن اليهودية أو النصرانية، ومن هؤلاء: الترجمان المكين[٤] وبلبان[٥]

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ٤ ص٤٦٦ .

(٢) راجع ابن إياس: بدائع الزهور جـ٤ ص٤٨١ . وعن رفض إسلام بعض أهل الذمة راجع أيضاً: المقريزي: السلوك جـ٤ قسم٣ ص١١٦٩ وص١١٧١ - ١١٧٢، وابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ٤ ص١٦٠، وراجع من ص ١٥٤ .

(٣) أحمد دراج: المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، دار الفكر العربي ص٣٧-٣٨ .

(٤) راجع عنه المقريزي: السلوك جـ٢ قسم١ ص٢٤٩، وقسم ٢ ص٣٤٩ و٣٥٨ . وهذا الترجمان كان في سلطنة السلطان الناصر محمد بن قلاوون الثانية.

(٥) راجع عنه المقريزي: السلوك جـ٣ قسم١ ص٣٧٩ .

(ت٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م) في أيام المنصور علي ابن السلطان الأشرف شعبان (٧٧٨-٧٨٣هـ/ ١٣٧٦- ١٣٨١م). ومن هؤلاء أيضًا: المترجم نصر الدين الذي كان من أصل يهودي أوربي، وأسلم وكان مترجمًا في عهد الأشرف برسباي[١]، ومنهم في أيامه أيضًا: المترجم سايم اليهودي الإشبيلي كبير المترجمين الذي صاحب الرحالة طيفور في القاهرة في أثناء رحلته (٨٣٩-٨٤٣هـ/ ١٤٣٥-١٤٣٩م) وذكر طيفور أن المترجم تلقاه بالترحاب، وقص عليه إسلامه وهو صغير ببيت المقدس بعد وفاة والده اليهودي، وأن المترجم كانت له أربع زوجات مسيحيات جلس معهن طافور ووضعت إحداهن غلامًا في أثناء إقامته في داره، ثم أخذ كبير المترجمين طافور لمقابلة السلطان برسباي[٢] . وممن كانوا مترجمين أيضًا في عهده المترجم نيكولودي كونتي البندقي النصراني الذي أسلم بمكة ظاهريًا هو وزوجته وأولاده، وجعله السلطان برسباي كبير مترجميه وأنزله منزلة كبار المترجمين، ومنحه دارًا يقيم بها، وأقطعه أملاكًا بالقاهرة[٣] .

ومن المترجمين اليهود الذين أسلموا وتولوا الترجمة في سلطنة الأشرف قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/ ١٤٦٧-١٤٩٥م) وحتى سنة ٩١٧هـ/ ١٥١٠م في أيام الأشرف قانصوه الغوري (٩٠٦-٩٢٢هـ/ ١٥٠٠-١٥١٦م) المترجم تغري بردي[٤] . وكان هذا المترجم اليهودي الإسباني الذي اعتنق الإسلام وانخرط في سلك المماليك يجيد سبع لغات أهلته لأن يكون كبير المترجمين في مصر[٥] . وتولى بعده مهمة الترجمة للسلطان الغوري بمصر حتى سقوط الدولة المملوكية سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م المترجم يونس، وكان نائبًا لتغري بردي ثم أصبح مترجمًا

---

(١) أحمد دراج: المماليك والفرنج ص٣٨ .

(٢) طافور: رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمه حسن حبشي، دار المعارف ص ٦٤-٧٠، وراجع حتى ص ١٠٠ للوقوف على رحلة طافور بمصر ووصفها، وذكره لمترجمين آخرين اصطحبوه - سوى كبير المترجمين- في تنقلاته بمصر.

(٣) طافور: رحلة طافور ص٩٢، وراجع عن إسلامه ص٧٨-٨٠، وص٩٢-٩٣ .

(٤) راجع عنه ابن إياس: بدائع الزهور جـ٤ ص٣٢ و٩١ وص١٢٠ و١٦٤ و٢١٠ و٣٦١-٣٦٢ .

(٥) راجع أحمد دراج: المماليك والفرنج ص١٢٠-١٢٢ .

مثله[1] . ويونس هذا كان من أصل يهودي أوربي من مواليد إحدى مدن إيطاليا[2] . في الفترة نفسها عُرف بمصر مترجم آخر من الفرنجة وهو المترجم تمربغا الذي أسلم وعمل مترجمًا بمصر ثم تولى سنة ٨٩٥هـ/ ١٤٨٩م نظر جيش دمشق[3] .

وهكذا كان المترجمون الأوربيون يتحولون إلى الإسلام عن النصرانية أو اليهودية، ويتولون هذه الوظيفة المرموقة الخطيرة من وظائف الدولة المملوكية، وبعضهم كان إسلامه إسلامًا شكليًا غير حقيقي.

وقد تحول إلى الإسلام غير هؤلاء كثيرون منهم بعض الأرمن، وعلى رأسهم الأمير أياس. فخر الدين (ت٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م) وأسلم على يد الناصر محمد بن قلاوون، وتولى إمارة طرابلس، ثم دمشق، ثم حلب[4] . كذلك أسلم أمير زه ابن ملك الكرج راغبًا في الإسلام، مقتنعًا بعقيدته سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م بحضرة القضاة والسلطان الظاهر برقوق، وتسمى ابن ملك الكرج بعبدالله، وأنعم عليه بإمرة عشرة[5] .

وبعد، فمما تقدم أمثلة ونماذج عديدة للتحول إلى الإسلام بمصر والشام في عصر سلاطين المماليك، كان لابد من عرضها عرضًا مفصلاً؛ تمهيدًا لعرض ومناقشة حالات الارتداد عن الإسلام لإمكان الوقوف على أصناف المرتدين والغرض من ارتدادهم، ومعرفة مرادهم، وبيان موقف الدولة المملوكية منهم.

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ٤ ص٣٦٢ .

(٢) أحمد دراج: المماليك والفرنج حاشية ٢٧١ ص٢٣٦، وذكر أنه من مواليد مدينة فيرونا بإيطاليا .

(٣) ابن طولون: مفاكهة الخلان ص ١٠١ و١٠٤، وراجع ص١٤٠ و١٤١ و١٤٢ .

(٤) الصفدي: الوافي بالوفيات جـ٩ ص٤٥٩-٤٦١، وراجع المقريزي: السلوك جـ٢ قسم٣ ص٨١٣، والمقفى جـ٢ ص٣٢٢-٣٢٣، وابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ١ ص٦٨٥، وابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٣ ص١١٩-١٢١، والنجوم الزاهرة جـ١٠ ص١٩٣ .

(٥) المقريزي: السلوك جـ٣ قسم٢ ص٥٤٥، وابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ١ ص١٣٢، وابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم٢ ص٣٧١ .

المبحث الثالث: حوادث ردة لذميين سابقين وموقف الدولة

تمهيد: في البداية لابد من الإشارة إلى أن جماهير أهل الذمة العريضة في مصر والشام في عصر سلاطين المماليك تمسكت بعقيدتها التي لم يتعرض لها أحد، وارتبطت بعلاقة وثيقة بالدولة وبالمسلمين، فلم ينالوا من عقيدة الدولة الرسمية، وأخذوا حقوقهم -بدليل ما سيأتي من أمثلة- كما أن بعض الرحالة من غير المسلمين[1] شهدوا بحسن معاملة الدولة للمسيحيين بالشام.

وما حدث من بعض الذميين من إساءة متعمدة للنبي محمد ﷺ أو للقرآن أو لعقيدة الإسلام، فإنما تخص هؤلاء الذميين، كذلك ما حدث من بعض هؤلاء من حركات ردة مفتعلة بغرض إحداث الفتن والقلاقل في الدولة، والإساءة إلى الإسلام وزعزعة عقيدته في نفوس أتباعه، إنما هي حركات تخص أصحابها، ولا تنسحب على كل أهل الذمة الذين يحافظون على عقيدتهم ولا يتلاعبون بالعقائد عن قصد وعمد.

وكانت للدولة المملوكية عدة ضوابط - سيأتي الحديث عنها- تتأكد من خلالها من إساءة الذمي المعتمدة للنبي ﷺ أو للإسلام أو لعقيدته، ولا تتورع عن تأديب المدعي عند عدم ثبوت دعوته، بل اعتدت على الفقهاء ظلمًا؛ حفاظًا- من وجهة نظرها- على استقرار المجتمع ودرأ للفتن والمنازعات، وهو ما حدث للفقيهين ابن تيمية والفارقي[2] سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م في حادثة اتهام عساف النصراني بدمشق بسبِّ النبي ﷺ وحماية النصراني من قِبَل أمير عربي يُدْعى أحمد بن حجي[3]، وقيام الشيخين ابن تيمية والفارقي بطلب معاقبة النصراني، وتدخل نائب السلطنة بدمشق الأمير عز الدين أيبك الحموي الذي

---

(1) Camon Pietro Casola's: Pilogrimage to Jerusalem in th year 1499, p. 242 .

(٢) هو الفقيه الشيخ زين الدين الفارقي أحد محدثي وفقهاء دمشق في القرن السابع الهجري، وكان شيخًا للحديث بها. راجع ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٨ ص٩٩ .

(٣) ذكر ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٤ مجلد٧ ص٣٤٣ أنه أمير آل علي.

أمر بضرب الفقيهين أمامه بعدما خرج بعض الناس بدمشق على النصراني والأمير العربي، ثم أرضى النائب الشيخين بعد إسلام النصراني[1] .

كذلك ضرب الفقيه المالكي شمس الدين محمد الدفري[2] نائب القاضي المالكي بالقاهرة سنة ٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م بسبب شكوى[3] من نصراني بالقاهرة، حيث ضرب الفقيه وهو مبطوح على الأرض أمام السلطان الظاهر برقوق ضربًا مبرحًا «ورسم عليه حتى يرضى النصراني»[4] .

وحبس قاضي القضاة المالكي بمصر ولي الدين محمد السنباطي سنة ٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م بسبب تاجر يهودي حكم عليه القاضي حكمًا في خلاف بين اليهودي وأحد المسلمين، فلم يرض اليهودي بالحكم وشكا القاضي إلى السلطان الظاهر جقمق الذي استدعى القاضي وذكر له أنه حكم بغرض وأمر بحبسه، فعزل القاضي نفسه في الحال، وحبس فترة حتى شفع فيه فخرج من سجنه معزولاً[5] .

بل إن الفقهاء بحلب إبان نيابة قراسنقر المنصوري عليها[6] للسلطان الناصر محمد بن قلاوون كانوا يُضايقون من قبل يهودي مستوف على الأوقاف بها،

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٤ مجلد ٧ ص٣٤٣-٣٤٤ .

(٢) محمد بن الشهاب الدفري أحد فقهاء المالكية وعلماء الحديث بمصر، درس بالعديد من مدارسها، وتوفى سنة ٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م. ابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص٣٦١ .

(٣) لم تذكر المصادر سبب شكوى النصراني.

(٤) المقريزي: السلوك جـ٣ قسم٢ ص٨٣٠، وابن حجرك إنباء الغمر جـ١ ص٤٨٩، وابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ١ ص٤٠٣ . وراجع خبرًا آخر عن ضرب فقيه لأجل يهودي سنة ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م لدى السخاوي: وجيز الكلام جـ٣ ص١٠٤٤ .

(٥) ابن تغري بردي: حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور جـ٢ ص٣٦٦، ولم يذكر سبب الخلاف بين التاجر اليهودي والمسلم.

(٦) الأمير قراسنقر بن عبدالله المنصوري، ينسب إلى المنصور قلاوون الذي رقاه إلى أن جعله مقدم ألف بمصر، ثم ولاه نيابة حماة ثم حلب حتى سنة ٦٩١هـ/ ١٢٩١م . ثم أعيد إلى نيابة حلب سنة ٦٩٩هـ ولمدة عشر سنوات، ثم نقل إلى نيابة دمشق فلم تطل مدته وأعيد إلى نيابة حلب للمرة الثالثة، وتوفي سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م . راجع ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٩ ص٤٧-٤٨ .

استمرأ مضايقتهم والتشدد عليهم فشكوه إلى النائب قراسنقر، فعزله ثم عاد بالرشوة إلى وظيفته «وعاملهم أشد من الأول» فشكوه فعزله ثم عاد فشكوه فعزله ثم عاد، فتوسط الفقيه الحلبي شمس الدين الخابوري[1] خطيب حلب وصاحب المكانة والمنزلة بها لدى اليهود بها حتى يمنعوا اليهودي من العودة إلى مباشرة الأوقاف بحلب ففعلوا ذلك «واستراح المسلمون منه»[2] .

ومما سبق من أمثلة يتبين لنا عدم محاباة الدولة المملوكية للفقهاء بصفة خاصة وللمسلمين بصفة عامة[3] وتغليب بعض الذمة عليهم في بعض الأحيان، وإنصاف أهل الذمة على حساب العلماء حتى بظلمهم والإساءة إليهم.

حوادث ردة لذميين سابقين:

لم تحدث ردة ممن أسلم من الذميين بسبب ما مر بهم من حوادث شاركوا

---

(١) الفقيه الحلبي شمس الدين الخابوري، أحمد بن عبدالله إمام مقرئ ولد بالخابور من أرض الجزيرة الفراتية سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م وتلقى العلم بحران علي فخر الدين ابن تيمية (ت٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م)، وبحلب ودمشق على علماء الفقه والقراءات، وسمع منه جمال الدين المزي وغيره، وتوفى الفقيه الخابوري سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م . راجع ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ١ ص٣٥٥-٣٥٧ .

(٢) ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ١ ص٣٥٧ . وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن تغري بردي ذكر (المنهل الصافي جـ٤ ص٢٩٧) أن الفقهاء كان يقع لهم ضرب وبهدلة وحبس في عهد الظاهر جقمق .

(٣) لدينا أمثلة عديدة عن معاقبة الدولة المملوكية لمن يعتدي على أهل الذمة، وحمايتهم وحماية بيوتهم وأموالهم. راجع للوقوف على ذلك النويري: نهاية الأرب جـ٣٢ ص٢١٦، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١ ص١٢٣ . كما لدينا أمثلة أخرى لقتل بعض النصارى لبعض المسلمين، راجع عنها ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ١ ص٦٧٩-٦٨٠، وابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٢ ص٣١٦ . ولدينا أمثلة أخرى لمشاركة النصارى المسلمين في نهب بيوت بعض الأمراء ممن غضب عليهم السلطان. راجع ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ١ ص٢٧٧-٢٧٨ و٢٩٧ . كما لدينا أمثلة أخرى عن أمور جمعت بين المسلمين والذمة راجع العيني: عقد الجمان جـ٣ ص٢٣٧، والمقريزي: السلوك جـ٣ قسم٢ ص٧٠٤-٧٠٥، وابن تغري بردي: حوادث الدهور جـ١ ص٢٧٢ و٢٨٨، والنجوم الزاهرة جـ٨ ص٤٣-٤٤ ، وابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ١ ص٢٩٤-٢٩٥ ، وابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم٢ ص٤٧٢. ولدينا أمثلة عن تحول بعض المساجد إلى كنائس حيث كانت أولاً بفتاوى من العلماء بأنه لا يجوز اغتصابها. راجع النويري: نهاية الأرب جـ٣٢ ص١٦٨، وابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ٣ ص٥١٩ .

في صنع بعضها، أو ممن أسلم من الذميين طلبًا لمنصب أو وظيفة إلا نادرًا، وكانت حالات الردة في مصر والشام من ذميين آخرين لم يضاروا من شيء ولم يجبروا على الإسلام، وبعضهم أسلم على يدي بعض الفقهاء ثم ارتد، وكان بإمكان هؤلاء جميعًا أن ينزووا جانبًا بعقيدتهم التي عادوا إليها وما استطاع أحد أن يصنع لهم شيئًا، لكن هؤلاء جاهروا بهذه الردة وأهانوا مقدسات الإسلام، وذهب بعضهم بنفسه إلى الدولة يعلن ردته ويطلب أن يموت في صورة الشهداء[1] حتى يستثير الناس، ويوقع البلبلة والشكّ في نفوس المسلمين، مما يبين نوايا هؤلاء في زلزلة قواعد الإسلام في نفوس أتباعه وإحداث الفتن والعبث بالإسلام في المجتمع المسلم؛ فهي - إذًا - حوادث مقصودة مفتعلة.

وكان توما بن عبد الله النصراني قد ارتد بدمشق سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م بعدما أسلم على يدي الشيخ ابن تيمية قديمًا، وجاور بالمئذنة الشرقية بجامع دمشق مدة ثم ارتد «وتكلم في القرآن بكلام، وقامت البينة عليه بذلك عند قاضي القضاة شرف الدين المالكي بدمشق»[2]. كما ارتد نصراني كان قد أسلم ثم ارتد سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م، وحكم قاضي القضاة شرف الدين المالكي بردته[3].

وفي سنة ٧٨١هـ/ ١٣٧٩م حضر إلى القاهرة طائفة من الرجال والنساء، وذكروا أنهم ارتدوا عن الإسلام بعد أن كانوا نصارى وأسلموا «ويريدون بارتدادهم التقرب إلى المسيح بسفك دمائهم ندمًا على ما فعلوا» فعرض عليهم القاضي علم الدين المالكي[4] الإسلام «مرارًا» فلم يقبلوا وقالوا: إنما جئنا لنتطهر

---

(1) Tamer el - Leithy: Coptic Culture and Conversion in Medieval Cairo 1293-1524 A.D, P. 101, 102, 105, 110 .

(٢) النويري: نهاية الأرب جـ٣٣ ص٢١٢-٢١٣ .

(٣) النويري: نهاية الأرب جـ٣٣ ص٣١٥ .

(٤) انفرد ابن إياس (بدائع الزهور جـ١ قسم٢ ص٢٥٠) دون باقي المؤرخين يذكر أن قاضي القضاة المالكية كان تقي الدين محمد الأخنائي المالكي أخا علم الدين محمد الأخنائي. وتوفي تقي الدين سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م . راجع المقريزي: السلوك جـ٢ قسم٣ ص٨١٤ .

ونتقرب بنفوسنا إلى السيد المسيح. وعرض الإسلام على النساء، فأبين أن يسلمن[1].

وحضر نصراني بدمشق سنة ٨٧٥هـ/ ١٣٨٣م للقاضي ولي الدين ابن أبي البقاء[2] فاعترف النصراني بأنه أسلم ثم ارتد «وسأله أن يضرب عنقه» فحمل إلى القاضي المالكي[3].

وفي السنة السابقة نفسها حضر بعض المرتدين عن الإسلام من أهل الذمة إلى قاضي القضاة بمصر جمال الدين عبدالرحمن بن محمد السكندري[4] المالكي ذاكرين أنهم ارتدوا عن الإسلام، فعرض عليهم العودة إليه فلم يوافقوا، وصمموا على ذلك[5].

ووردت حادثة ردة متصلة بكاتب نصراني مستوف للمارستان المنصوري بمصر هو إبراهيم بن بُرَيْنية من مسالمة النصارى، أسلم ثم ارتد سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م فعرض عليه الإسلام مرارًا، ورغب في العودة إليه، فلم يقبل، وأصر على ردته إلى النصرانية «فسئل عن سبب ردته فلم يبد شيئًا»[6].

---

(١) المقريزي: السلوك جـ٣ قسم١ ص٣٧٢-٣٧٣. وابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص١٩٧، وابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم٢ ص٢٥٠.

(٢) هو القاضي الشافعي بدر الدين محمد بن أبي البقاء وولي القضاء مرارًا، وأصبح سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م قاضي القضاة بدمشق، وتوفي سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م، راجع المقريزي: السلوك جـ٣ قسم٢ ص٦٦٥، وابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ١ ص٢٥٩، والنعيمي: الدارس في تاريخ المدارس جـ١ ص١٣٥-١٣٦، ابن العماد: شذرات الذهب جـ٧ ص٣٧ - ٣٨.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٢٧٩، وذكر المقريزي في: السلوك جـ٣ قسم٢ ص٤٨٨ الخبر دون أن يبين أنه بدمشق، لكن وقوع الحادثة في شهر صفر عند المؤرخين والاتفاق في بعض تفاصيلها يؤكد أنها واحدة، وأنها تمت بدمشق، وراجع ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ١ ص٦٤. والقاضي المالكي المقصود هو القاضي علم الدين محمد بن محمد القفصي. انظر: المقريزي: السلوك جـ٣ قسم٢ ص٤٤١، وص٥٢٠ و٥٥٤.

(٤) قاضي القضاة جمال الدين عبدالرحمن بن محمد بن خير السكندري المالكي، نشأ بالإسكندرية وبرع في الفقه، واشتهر بحسن السيرة، وطلب لقضاء المالكية بمصر وباشر ذلك أحسن مباشرة، وتوفي سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م. المقريزي: السلوك جـ٣ قسم٢ ص٦٨٦.

(٥) راجع المقريزي: السلوك جـ٣ قسم٢ ص٤٨٨، وابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ١ ص٦٣، وابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم٢ ص٣٢٨ و٣٣١.

(٦) المقريزي: السلوك جـ٣ قسم٢ ص٩١٧، وابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص٣٧، والسخاوي: الضوء اللامع جـ١ ص٣٣، وابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم٢ ص٥١٠.

وفي سنة ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م قبض بمصر على نصراني فادعى عليه أنه كان قد أسلم «وأقيمت البينة بذلك، فاعترف، فعرض عليه الإسلام فامتنع»[١] .

وذكر المقريزي[٢] وغيره[٣] أنه في سنة ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م ارتد رجل عن الإسلام وكان نصرانيًا فوجده بعض الناس عند زوجته، فاحتمى من القتل بأن أظهر الإسلام ومضى لسبيله، واستمر شهرًا وجاء يوم جمعة إلى بعض القضاة وذكر له أنه كان نصرانيًا وأسلم، ثم إنه رغب في أن يعود إلى النصرانية وقصد أن يُظهر بالسيف «وتكلم بما لا يليق من القدح في دين الإسلام، وتعظيم دين النصرانية، وصرح بما يعتقد من ألوهية المسيح وأمه، فتلطف به القاضي ومن عنده، وهو يلوح ويعاند ويفحش في القول، فأمر به فسجن. وعرض عليه الإسلام مرارًا في عدة أيام وهو متماد في غَيِّه، فلما أعياهم أمره، وملت الأسماع من فحش كلامه، وجهره بالسوء، ضربت عنقه»[٤] .

وذكر ابن حجر خبرًا غفلاً من تحديد المكان والاسم سنة ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م حيث ارتد رجل كان نصرانيًا فأسلم، فعرض عليه الإسلام فامتنع[٥] .

هذه هي حالات الردة - التي ذكرتها مصادرنا[٦] - وشهدتها مصر والشام

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص٤٤٣ .

(٢) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم٢ ص٨٨٤ .

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص٤٩٢، وابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ٣ ص٢٥١-٢٥٢، ومؤلف مجهول: حوليات دمشقية ص٤٥ .

(٤) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم٢ ص٨٨٤، وابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ٣ ص٢٥٢ .

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٤ ص٥٢ .

(٦) ذكر النويري في: نهاية الأرب جـ٣٣ ص٢٩ حالة ارتداد شاب سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م عن الإسلام بمصر، كان قد أسلم وهو دون البلوغ تبعًا لأبيه النصراني الذي أسلم، واستمر الشاب عشر سنين ثم ارتد، فسئل، فاعترف بأن أباه أسلم وهو دون البلوغ وعرض عليه الإسلام فأباه. ولم أشأ ذكرها في مكانها على أساس أن هذه الحالة تختلف عن حالات الردة التي ذكرتها والتي أظهر فيها أصحابها الإسلام بأنفسهم، وكذلك الردة. ويذكر هنا أن النصارى كانت ترفض تبعية أولاد النصراني الذي يسلم له، كانوا يتضامنون ضد الدولة والقضاة للحيلولة دون انضمام أولاد من أسلم منهم إليه، وقد اتهموا بسم قاض بالصعيد حكم بهذه التبعية لأولاد من أسلم. راجع الإدفوي: الطالع السعيد ص٤٢١-٤٢٢، وراجع من ص٤٢٠، والمقريزي: السلوك جـ٢ قسم٣ ص٩٠٠-٩٠١ .

خلال عصر سلاطين المماليك من قِبَل ذميين نصارى أظهروا الإسلام وافتعلوا العودة عنه، وقدموا بأنفسهم إلى القضاة طالبين معاقبتهم؛ مصرين على ذلك.

موقف الدولة المملوكية من حوادث ردة الذميين السابقين عن الإسلام:

لم تأخذ الدولة المملوكية بالشبهة أو الظن في الحكم على ارتداد أحد، كما لم تسع إلى تتبع وملاحقة من تحوم حوله شبهة الردة، بل تأكدت كل التأكد ووثقت كل الثقة في ردة من عوقب.

والدليل أن هناك ذميين أظهروا الإسلام، وشك في هذا الإسلام، ولم يسألوا أو يعاقبوا. ومن هؤلاء: الوزير علم الدين بن زُنبور[1] (ت٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م) النصراني الذي أسلم، وأشيع عنه سنة ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م احتفاظه في بيته بعدة صلبان، وأنه لما سافر إلى القدس في السنة السابقة بدأ بكنيسة القيامة فَقَبَّل عتبتها وتعبد فيها، ثم خرج إلى المسجد الأقصى فلم يصلِّ فيه، وكانت صدقته على النصارى بكنيسة القيامة، ولم يتصدق على أحد من فقراء المسلمين بالقدس، مما جعل البعض من غير الفقهاء يدعون عليه التنصر والارتداد عن الإسلام، فلم يحدث له سوى العزل من وظائفه[2]. ومنهم: الوزير إبراهيم بن عبدالله شمس الدين المعروف بكاتب أرنان (ت٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م) النصراني الذي أسلم وخدم الأمراء وتولى الوزارة في سلطنة الظاهر برقوق، وقيل عنه: إنه كان يبطن النصرانية ويدين بها، وأخبر بذلك المقريزي[3] بعض من كانت له صلة بأرنان.

---

(١) الوزيز علم الدين بن زُنبور كان في مبدأ أمره يباشر استيفاء الوجه القبلي، ثم عينه الناصر محمد بن قلاوون كاتب الإصطبل، ثم استقر ابن زنبور مستوفيًا للصحبة في أيام المنصور أبي بكر بن الناصر، وانتقل من هذه الوظيفة إلى نظر الخاص ونظر الجيوش وأضيفت إليه الوزارة ولم يتفق لأحد قبله بالجمع بين الوظائف الثلاث. راجع المقريزي: السلوك جـ٢ قسم٣ ص٨٧٧ و٨٧٨ و٨٧٩ و٨٨٠ و٨٨١ و٩٠٦، وراجع ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ٣ ص١٧٥ .

(٢) راجع المقريزي: السلوك جـ٢ قسم٣ ص٨٨٢ - ٨٨٣ .

(٣) المقريزي: درر العقود جـ١ ص١٦٦-١٦٨، وابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٣٣٩، وراجع من ص ٣٣٨، وابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ٣ ص ٢٢٥، وراجع من ص ٢٢٤ . وللوقوف على ترجمته=

كذلك ذكر عن عبد الرزاق بن أبي الفرج بن نقولا[1] (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) الذي أسلم بإسلام والده، ثم دخل عبدالرزاق بلاد الفرنج، فقيل: إنه رجع إلى النصرانية[2]، ومع ذلك لما قدم من بلاد الفرنج لم يُناقش أو يعاقب. كما اتهم الكاتب تاج الدين الأسلمي القبطي (ت٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م) ناظر ديوان المفرد بأنه نشأ مظلمًا «ليس عليه نورانية الإسلام»[3].

هذا وقد استخفت أسرة بني مكانس التي تظاهرت بالإسلام به، وبقيت نساؤهم وبناتهم على النصرانية، واستخف رجالهم بكتاب الله ودينه ورسوله[4]. ومنهم عبدالرحمن بن عبد الرزاق الشهير بابن مكانس (ت٧٩٤هـ/ ١٣٩١م)، وزير دمشق الذي رُوي عمن عاشره دهرًا طويلاً أنه سمع المؤذن وهو يقول في آذانه: وأشهد أن محمدًا رسول الله، فقال هذا المشكوك في إسلامه: «محضر له ثمانمائة سنة نودي فيه بالشهادة وما ثبتت»[5].

واشترطت الدولة المملوكية لمعاقبة المرتدين ثبوت الأدلة الكاملة على هذا

= راجع ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات مجلد ٩ جـ١ ص١٤ و١٥ و١٦ و٤٤، والمقريزي: السلوك جـ٣ قسم٢ ص٥٦٩، وابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ١ ص٧٤-٧٦، والنجوم الزاهرة جـ١١ ص٢٥٦، وابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ١ ص١٦٠-١٦١ ، والسيوطي: حسن المحاضرة جـ٢ ص٢٢٥ .

(١) تولى عدة وظائف، فكان أولاً صيرفيًا بقطيا، ثم صار كاتبًا بها، ثم ولي نظرها ثم استقر وزيرًا بالديار المصرية، ثم أستادارا، ثم ولي كشف الوجه البحري. راجع المقريزي: السلوك جـ٤ قسم١ ص٢٦، وابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ٤ ص١٢ . وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٣ ص١١٥-١١٦ .

(٢) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ٢ ص٤٣٣، والسخاوي: الضوء اللامع جـ٤ ص٢٤٩ وراجع من ص٢٤٨ . ولترجمته راجع المقريزي: السلوك جـ٤ قسم١ ص٢٦، وابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص١٨٢، وابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٧ ص٣١٤، وراجع النجوم الزاهرة جـ١٤ ص١١١، وابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم٢ ص٥١٦ .

(٣) ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٧ ص٣٠٦ .

(٤) المقريزي: السلوك جـ٣ قسم١ ص٣٤٤ .

(٥) ابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٧ ص١٧٤، وراجع من ص١٧٣، وتجدر الإشارة هنا إلى بعض من أسلم من الذميين النصارى وتولى الوزارة كان يظهر عصبيته للنصارى خاصة. راجع عن هذا: المقريزي: المقفى جـ٢ ص٢٦٩، وراجع من ص ٢٦٦ - ٢٧٠ . وراجع مثالاً آخر لدى ابن حجر: الدرر الكامنة جـ٢ ص٣٦٨ .

الارتداد، ولذلك تكررت عبارة «قامت البينة عليه بذلك»[1] قبل معاقبة هؤلاء المرتدين من كانوا ذميين فأسلموا وارتدوا، أو أن بعض هؤلاء يعترفون على أنفسهم، ويصرون على هذا الاعتراف، ويرجون إنزال العقوبة بهم، وهو الأمر الذي سبقت الإشارة إليه.

والحق أن الدولة المملوكية احترست[2] من المسارعة في إيقاع العقوبة الواجبة على المتهمين من بعض أهل الذمة أو على من أظهر الإسلام منهم ثم عاد عنه، وكان احترازها من إنزال العقوبة بهم ملموسًا، بدليل أنه في سنة ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م ارتد نصراني كان أسلم وتزوج مسلمة وأنجبت منه، فرفع أمره للقاضي بدمشق، فأنكر النصراني «فقامت عليه البينة عند نواب المالكي» وعقد مجلس بادر النصراني فيه إلى الإسلام «فحكم الحنبلي بصحة إسلامه وحقن دمه»[3]. وفي سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م ثبت على ميخائيل الأسلمي الذي أسلم في السنة الماضية مباشرة بحضرة السلطان الظاهر برقوق، وقرره في نظر الإسكندرية، ثبت عليه خروجه عن الإسلام «وشهد عليه بذلك خمسون إلاّ واحدًا» فنال عقوبته[4].

وقد أدى عدم قيام البينة وثبوتها على نصراني بمصر وقع منه سنة ٨٢٠هـ/

---

(١) راجع النويري: نهاية الأرب جـ٣٣ ص٢١٣، وابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص٤٤٣، وراجع أيضًا جـ٣ ص٤٠٠.

(٢) لعل من الاحتراس من ظلم أهل الذمة ما حدث سنة ٧٠١ هـ/ ١٣٠١م من عقد مجلس بدمشق للفقهاء وغيرهم وحضره اليهود الخيابرة الذين ادعوا أن معهم كتابًا يعود إلى رسول الله ﷺ بوضع الجزية عنهم، فوقف على هذا الكتاب وتبين أنه مكذوب مفتعل لما فيه من الألفاظ الركيكة والتواريخ المتعارضة واللحن الفاحش، وحاقق اليهود شيخ الإسلام ابن تيمية وبيّن لهم خطأهم وكذبهم، وأن الكتاب مزور مكذوب؛ فرضوا بدفع الجزية. وقد رأى ابن كثير هذا الكتاب ووقف على تزويره. ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٤ مجلد ٧ ص٣٨٨-٣٨٩. وجاء طلب يهود خيبر هذا على أساس أن النبي ﷺ - كما هو مشهور وثابت- لما قدم المدينة وادع من بها من يهود وهادنهم على غير جزية، وكان هذا ليهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة. راجع ابن تيمية: الصارم المسلول ص٦٢.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٢١٩.

(٤) راجع ابن حجر: المصدر السابق جـ١ ص٣٣٤.

١٤١٧م ما يقتضي إراقة دمه[١] إلى عدم معاقبته بما يستحقه بل إلى تعزيره، وذلك لأنه أنكر ما ادعى عليه به «فتشطرت البينة، ولم يكمل النصاب، فحكم قاضي القضاة جمال الدين عبد الله بن مقداد المالكي بتعزيره». وكان تعزيره بالضرب[٢].

وأدى عدم ثبوت تهمة قتل أحد اليهود المدعين للطب بمصر لواحد من «أولاد الناس» سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م إلى عدم عقوبته حيث لم يثبت على اليهودي قتل العليل بالحقنة التي وصفها له، والتي مات بعد احتقانه بها بيومين[٣].

وهكذا فإن الدولة المملوكية تمهلت قبل إنزال العقوبة بمن أسلم من أهل الذمة ثم ارتد للتأكد من هذا الارتداد، ولتكون الأدلة عليه ظاهرة، وفي الوقت نفسه فإنها استتابت هؤلاء جميعًا - كما مر - وسألت عن أسباب العودة عن الإسلام قبل تنفيذ العقوبة لأجل كشفها وإزالة الشبهات التي ربما كانت سببًا في الارتداد، لكنها وجدت محاولات ارتداد مفتعلة، وعنادًا وإصرارًا على إنزال العقوبة لظن هؤلاء أنهم قد يتحولون إلى شهداء، كما كان بعض الذميين يقعون عن عمد وقصد في حق الرسول ﷺ ويسبونه علنًا، أو يقدحون في الإسلام جهارًا طالبين بزعمهم الشهادة، ولا يقتنعون بالضرب والزجر، ومن ذلك ما قام به نصراني من أهل الطور سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م من الطعن في الإسلام بالقاهرة، فأحضر إلى القاضي تاج الدين المناوي فسأله عن سبب قدومه من الطور إلى القاهرة فقال: «جئت لأعرفكم أنكم لستم على شيء، ولا دين إلا

---

(١) لم تذكر المصادر ما قام به هذا النصراني، ولعله كان سَبًّا للرسول ﷺ أو ما شابه ذلك وهو ما يقتضي العقوبة المذكورة.

(٢) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم١ ص٤١٦، وابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص١٤١.

(٣) راجع ابن إياس: بدائع الزهور جـ٤ ص٣٨٦، وذكر أن اليهودي الذي وصف بادعاء الطب كاد أن يسلم خوفًا من العقوبة، فلما لم يتأكد من أنه وراء موت المريض عاد لدينه. وراجع:
Tamer el - Leithy: Coptic Culture and Conversion in Medieval Cairo, p. 38
وقد زعم أن اليهودي قد أسلم، اعتمادًا على رواية ابن إياس السابقة، وهو ما لم يذكره ابن إياس.

دين النصرانيـة، وما قلت هذا إلا لكي أمـوت شهيـدًا» فضربـه القاضي المناوي ضربًا مبرحًا لمدة أسبوع وهو يقول: «عَجِّل عليّ بالقتل حتى ألحق بالشهداء»[١].

والحق أن عـددًا من النصارى واليـهود بمصـر والشام كـانوا على هذا الفكر يسبون الرسـول ﷺ ويشتمونه عـلانية طلبًا للشهـادة بزعمهم[٢] وحدث هذا قبـيل سنة ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م بقليل من بعض الأثرياء بـقوص[٣]، وتكرر مثله بدمشق سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م مـن قبل عسـاف النصراني[٤] . وسنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م حيث تعـرض راهب بالقاهرة إلى ذكـر الرسول ﷺ وذكـر الإسلام بسـوء، وأغض من الرسـول ﷺ ووصف الـراهب بأنه كـان «جـريئًـا» في اعتداءاته على الرسول الكريم ﷺ وعلى الإسلام[٥] .

وحدث أن سبَّ نصرانـي من بعلبك سنة ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م الرسول الكريم ﷺ وقذفه بكلام «لا يليق ذكره» وثبت عليه ذلك بمجلس عقد له ببعلبك[٦]. وحـدث هذا السب للرسـول ﷺ من قِـبَل بعض النصـاري بدمـشق[٧] سنة ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م وحـدث مـثله بالقـدس في سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م حـيث إن أربعة من الرهبان النصـارى بروزا بها وصاروا يجهرون بطلب العلمـاء والفقهاء

---

(١) المقريزي: السلوك جـ٢ قسم٣ ص٨٩٥، وابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم١ ص٥٤٩ .

(٢) Tamer el - Leithy: Coptic Culture . p. 114.

وقـد قارن بين مـا قـام به بعض النصـارى الشـرقيين وبعض نـصارى الأندلس في هـذا المسلك بزعم نيل الشهادة. ولمزيد من التفصيل عن هذا السلوك من بعض نصارى الأندلس راجع حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد ص ٣٢٥-٣٢٦ تحت عنوان: «بعض المتعصبين من رهبان النصارى يحاولون إثارة فتنة دينية في الأندلس».

(٣) الإدفوي: الطالع السعيد ص١٥١، وابن الفرات: تاريخ ابن الفرات جـ٨ ص٧٣ .

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٤ مجلد ٧ ص٣٤٣-٣٤٤ .

(٥) ابن الجزري: تاريخ حـوادث الزمان وأنبائه ووفيـات الأكابر والأعيان من أبنائه، تحـقيق: عمر عـبد السلام تدمري، المكتبة العصـرية، صيدا- بيروت جـ٢ ص٦٧ . وراجع: النويري: نهاية الأرب جـ٣٣ ص١٨٢-١٨٣ .

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٤ مجلد ٧ ص٦٨١ .

(٧) راجع ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ٢ ص١٦٣ .

للمناظرة، ويصرحون جهراً بسوء المقال في الرسول ﷺ ويصفونه بالكاذب والساحر والمجنون، ويذمون في الإسلام، فلما اجتمع بهم الفقهاء استمروا على ذم الإسلام والقائم به، فعرض عليهم الإسلام «فامتنعوا وأصروا على ما قالوا به»[1].

ويطول المقام إذا تتبعنا كل أخبار الذميين[2] التي نالت من رسول الله ﷺ أو التي طعنت فيه بقصد وعلانية، واختم بتعرض نصراني سنة ٩١٨هـ/ ١٥١٢م للنبي ﷺ بكلمات «فاحشة» والشهادة عليه بذلك من جماعة، فاعترف النصراني بذلك أمام القضاة ونال عقوبته[3].

بل إن بعض الفرنج المستأمنين الذين أقاموا بالقدس بأمان طعن أربعة منهم سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م في الرسول ﷺ وهاجموا الإسلام، فاستدعوا ونوقشوا وذكروا بأنهم أقاموا في بلاد المسلمين بعهد لا ينبغي نقضه، فزعموا أنهم بعثوا إلى المسلمين للنصح والدعوة إلى الدخول في النصرانية[4]، ولما ثبت عليهم الطعن في الرسول ﷺ والإساءة إليه عوقبوا[5].

ولم تكن الدولة المملوكية تعاقب مَنْ يسب الرسول ﷺ فقط، بل عاقبت من سَبَّ الأنبياء عليهم السلام، ففي سنة ٨٣٥هـ/ ١٤٣١م وقع نصراني في حق نبي الله داود عليه السلام، فسجن مدة وعرض عليه الإسلام فامتنع، وأصر، فقتل[6].

---

(١) راجع المقريزي: السلوك جـ٣ قسم٢ ص٧٩٢، وابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٤٥٧، وابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ١ ص٣٦٧.

(٢) راجع في ذلك أيضًا المقريزي: السلوك جـ٣ قسم١ ص٣٧٣، وابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٢٢٠، وابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ٢ ص١٦٣، والعيني: عقد الجمان جـ٤ ص٣٥١، و٣٥٢ و٣٥٣.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور جـ٤ ص٢٨٦.

(٤) جرت محاولات لتنصير المسلمين على أيدي الفرنج والنصارى ببلاد الشام خاصة. راجع ذلك عند النويري: نهاية الأرب جـ٣٠ ص٣٢٠-٣٢١، وص٣٢٢، وجـ٣٢ ص٢١٧، والمقريزي: السلوك جـ٢ قسم١ ص١٤٢. وراجع عن ذلك بمصر ابن تغري بردي: حوادث الدهور جـ٢ ص٣٦٠.

(٥) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ٣ ص٣٨٩-٣٩٠.

(٦) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم٢ ص٨٧٨، وابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص٤٧٦.

وقد كانت الدولة المملوكية تستتيب من ادعى الإسلام من أهل الذمة، ثم ارتد، كما كانت تستتيب من يسب النبي ﷺ من أهل الذمة، ثم إذا ما وجدت إصراراً على ذلك، فإنها قامت بتنفيذ عقوبة القتل على هؤلاء[1]، وغيرهم[2].

وكان القتل يتم من قبل الدولة وبحضور القضاة في عدة أماكن محددة عُرف منها بمصر: المدرسة الصالحية[3] حيث تم عندها دومًا معاقبة من أريد

---

(١) للوقوف على حالات الارتداد من بعض الأفراد ممن كانوا ذمة ثم أسلموا وارتدوا في عهد الرسول ﷺ وفي عهد الراشدين راجع ابن تيمية: الصارم المسلول ص١١٦ و٣٦٠، وللوقوف على أقوال الفقهاء الأربعة في قتل المرتد عن الإسلام بعد الاستتابة وأدلتهم في ذلك راجع المصدر السابق نفسه ص١١٧ و٢٥٣ و٢٥٧ و٢٦٠ و٢٦١ و٢٩٨ و٣٠٠ - ٣٠١ و٣٠٢ و٣١٢ و٣١٣ و٣١٤ و٣١٨ و٣٢١-٣٢٥ . وللوقوف على قتل المرتدين عن الإسلام ممن كانوا ذميين ثم أسلموا في عهد الدولة الفاطمية بمصر. راجع ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر «ملحق بكتاب الولاة وكتاب القضاة» للكندي تصحيح رفن كست، مؤسسة قرطبة، ص٥٣٠ و ٥٩٣ . وراجع ساويرس بن المقفع: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية مجلد٢ جـ٣ ص١٧٠-١٧١. وراجع ترتون: أهل الذمة في الإسلام، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية للكتاب ص٢١١-٢٢٦. وسبقت الإشارة إلى رأي أبي حنيفة وأصحابه بعدم قتل الذمي الساب للنبي ﷺ والاكتفاء بتعزيره، وقتله إذا تكرر منه السب. وراجع أيضًا ابن الأخوة: معالم القربة ص٤٥ . ويبدو أن هذا الرأي وغيره من آراء متصلة بأهل الذمة حكم بها القضاة الأحناف (مثل عدم إلحاق أولاد من أسلم به. راجع المقريزي: السلوك جـ٤ قسم ٣ ص١٢١١-١٢١٢) جعلت أهل الذمة يميلون إليهم بدليل وقف بعضهم لأوقاف أجازوا إعطاء فقراء المسلمين منها تحت إشراف القاضي الحنفي. راجع وثيقة رقم ٢٥٩ من مجموعة وثائق سانت كاترين، نشر قاسم عبده قاسم، ملحق (٢) في كتاب: أهل الذمة في مصر ص٢٠٥-٢٠٧ .

(٢) للوقوف على قتل من ظهرت منهم زندقة وانحلال من المسالمة والمسلمين، راجع ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٤ مجلد٧ ص٣٨٧ و٤٠٨ و٤١٧ و٤٤٧ و٤٨٤ و ٥١٥ و٦٢٧ و٧٠٧، والمقريزي: درر العقود جـ١ ص٢٥٨ . وابن شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ١ ص١٢٧ و٣٥٨ وجـ٢ ص٦١ و٢٦١ و٤٨٨ وجـ٤ ص٤٠١، وابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٥٢٧ و٥٤٠ وجـ٢ ص٤٣٤، وجـ٤ ص١٥٤ - ١٥٦، والدرر الكانة جـ١ ص٣٣٥-٣٣٦ . وابن تغري بردي: حوادث الدهور جـ١ ص١٦٨، وراجع ابن إياس: بدائع الزهور جـ٢ ص٢٤ .

(٣) المدرسة الصالحية ببين القصرين بالقاهرة من بناء الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة، وبنيت في مكان القصر الكبير الشرقي الفاطمي. المقريزي: الخطط جـ٢ ص٣٧٣ . وقد بقي الآن منها الواجهة الغربية التي بها الباب العمومي المشرف على شارع بين القصرين وتعلوه مئذنتها . راجع تعليق محمد رمزي في: النجوم الزاهرة طبعة دار الكتب جـ٦ ص٣٤١ هامش (١).

معاقبتهم بالقتل أو التعزير[1]. وكذلك حدث ذلك مرة عند دار الحديث الكاملية[2] بين القصرين[3]، ومرة خارج باب الشعرية[4]، وبعض مرة بالقلعة[5]. وتم معاقبة من أريد معاقبتهم بدمشق بالقتل بسوق الخيل بها[6] . ويبدو أن هذه الأماكن كانت متسعة للجموع المشاهدة التي تحضر مثل هذه العقوبات.

المبحث الرابع

حوادث ردة منسوبة لبعض المماليك وبعض موظفي الدولة

ذكرت مصادرنا بعض حالات ارتداد منسوبة لبعض المماليك والأجناد وبعض موظفي الدولة من غير الذميين الذين أظهروا الإسلام ثم ارتدوا عنه. ومن هذه الحالات ما حدث سنة ٧٨١هـ/ ١٣٧٩م من حضور جندي إلى الصالحية، سأل القاضي المالكي وقال: أريد أن تطهرني فإني مرتد عن الإسلام، فأمسك وضرب، وظهر أنه مجنون، فسجن بالمرستان[7] . ومنها ما حدث سنة

---

(١) راجع النويري: نهاية الأرب جـ٣٣ ص١٨٣، والمقريزي: السلوك جـ٤ قسم٢ ص٨٧٨ و٩٩٨ . وابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ١ ص٦٣ . وابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم٢ ص٢٥٠ و٣٢٨ و٣٣١ وجـ٤ ص٢٨٦ .

(٢) دار الحديث الكاملية بين القصرين بالقاهرة المعروفة أيضًا بالمدرسة الكاملية أنشأها الملك الكامل بن العادل سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م لدراسة الحديث النبوي. المقريزي: الخطط جـ٢ ص٣٧٤ . وذكر محمد رمزي أنها موجودة الآن بشارع بين القصرين بجوار جامع السلطان برقوق من بحريه وتعرف باسم جامع الكاملية أو جامع الكامل. محمد رمزي: النجوم الزاهرة ط دار الكتب جـ٢ ص٢٢٩ هامش (١).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٤ مجلد ٧ ص٣٨٧ .

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص١٤١ وعرف باب الشعرية بهذا الاسم نسبة إلى طائفة من البربر يعرفون ببني الشعرية. المقريزي: الخطط جـ١ ص٣٨٢ .

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص١٩٧ وجـ٢ ص٣٧، والسخاوي: الضوء اللامع جـ١ ص٣٣ . وابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم٢ ص٥١٠ .

(٦) النويري: نهاية الأرب جـ٣١ ص١٥٨، والصفدي: الوافي جـ١٦ ص٤٤٧، وابن الفرات: تاريخ ابن الفرات جـ٨ ص٧١، وابن كثير: البداية والنهاية جـ١٤ مجلد ٧ ص٥١٥ و٦٨١، وابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة جـ١ ص١٢٨ و٣٥٨ و٦٦٨ و٦٧٩، وابن تغري بردي: المنهل الصافي جـ٢ ص٨٠ وص٣١٧، والعيني: عقد الجمان: جـ٢ ص٣٧١ .

(٧) راجع المقريزي: السلوك جـ٣ قسم١ ص٣٧٣، وابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص١٩٨ .

٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م وفيها غزيت رودس في زمن الملك الظاهر. وأخبر الجند الذين وصلوا إلى رودس أن جماعة من المماليك السلطانية نحو العشرة هربوا ودخلوا إلى رودس وصاروا نصارى «فإن أصلهم منهم» وهرب من المسلمين أيضًا إلى الفرنج «بهادر» الترجمان، الذي كان ترجمان الفرنج[١] .

هذان هما الخبران المتصلان بردة بعض المماليك وبعض موظفي الدولة، وواضح أن المماليك الذين ارتدوا عن الإسلام كانوا أصلاً من أهل الذمة بدليل ما جاء في الخبر «فإن أصلهم منهم» ولأن عددًا من الفرنج كانوا ضمن المماليك السلطانية بعد أن أظهروا الإسلام -وقد سبقت الإشارة إلى ذلك[٢] - حتى نهاية الدولة المملوكية، فلقد كان هناك مملوك فرنجي من مماليك السلطان الغوري سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م، وكان له بعض المماليك التابعين له[٣] .

أما الترجمان المسمى «بهادر» فلقد كان المترجمون - كما سبق- إما يهودًا أو نصارى أظهروا الإسلام، فأصبحوا مترجمين للسلطان أو للأمراء أو لغيرهم كما مر ذلك.

وعليه فلا توجد حالات ردة لمسلمين أصليين في عصر سلاطين المماليك في مصر، والشام، فقط ذكرت مصادرنا أنه في سنة ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م قام بعض الفرنج بصور بخطف[٤] بنت مسلمة وتنصيرها، فغضب السلطان الظاهر بيبرس

---

(١) ابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان جـ٤ ص٢٧١-٢٧٣ . والسخاوي: التبر المسبوك تحقيق: نجوى مصطفى ولبيبة إبراهيم، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة جـ١ ص٢٠٢ . وابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور جـ٢ ص٢٣٨ .

(٢) راجع المقريزي: السلوك جـ٤ قسم٢ ص٧١٣ . وابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص٢٣٤ . وابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ٣ ص٧٣-٧٤ و٨٨ و١٢٠ . والسخاوي: وجيز الكلام جـ٢ ص٧٢٨ ، وابن إياس: بدائع الزهور جـ٢ ص٢٤٧، وجـ٤ ص١٦٤ .

(٣) راجع ابن إياس: بدائع الزهور جـ٥ ص٣٧-٣٨ .

(٤) تجدر الإشارة إلى أن النصارى من سكان قارا (بين دمشق وحمص) كانوا سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م يتعدون على ضياع المسلمين ويبيعون من يقع منهم في أيديهم إلى الفرنج بحصن عكا؛ فأدبهم الظاهر بيبرس في السنة السابقة نفسها. راجع المقريزي: السلوك جـ١ قسم٢ ص٥٥٢-٥٥٣ . كما كان الفرنج يأسرون المسلمين ويبيعونهم. راجع: المقريزي: السلوك جـ٢ قسم١ ص٢٨٩، وابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم٢ ص ٣٢٩ .

وكاتب الفرنج بصور لإطلاقها فرفضوا[1] . وحدث في السنة نفسها تنصير لمملوك لأحد الأمراء وهو الأمير جمال الدين أقش الرومي[2] ، وطُلب هذا المملوك فلم يستجب لمطلب المسلمين[3] . وحدث في سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م تنصير لأربعة من مماليك السلطان بيبرس بعكا بعد هروبهم منه إلى عكا، فأغار السلطان عليها[4] .

وهذه الحالات عبارة عن حالات إكراه وغصب، والمماليك الأربعة الذين هربوا من السلطان إلى عكا نصروا بالقوة، ولذا عرف ذلك عندما أطلقهم الفرنج ، وكان تنصيرهم بسبب عدم قيام السلطان بدفع فدية مقابل إطلاق سراحهم[5] .

ولدينا خبر آخر بدمشق سنة ٧١٤هـ/ ١٣١٤م حيث قام كاتب نصراني يدعى «موسى بن سمعان» باستمالة رجل من «ضعفة العقول من المسلمين ونصَّرَهُ وكواه على يده مثال صليب»[6] .

ومما سبق يتبين لنا عدم ارتدادس أحدٍ من المسلمين الذين ولدوا ونشأوا وعاشوا على الإسلام، وما نسب إلى بعضهم إمَّا عن إكراه وغصب أو كان من أصحاب العقول غير السليمة كما ورد في حالتين من الحالات السابقة.

***

(١) ابن عبدالظاهر: الروض الزاهر ص٣٤٧، والنويري: نهاية الأرب جـ٣٠ ص٣٢٠ .

(٢) جمال الدين أقش الرومي من كبار الأمراء في عهد الظاهر بيبرس وتولى عدة وظائف بالدولة في عهده. راجع ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص١٣٦، ٣٤٧و٣٥٤ و٤٠٣ .

(٣) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص٣٤٧، والنويري: نهاية الأرب جـ٣٠ ص٣٢١ .

(٤) النويري: نهاية الأرب جـ٣٠ ص٣٢١-٣٢٢، والمقريزي: السلوك جـ١ قسم٢ ص٥٧٩ .

(٥) راجع المقريزي: السلوك جـ١ قسم٢ ص٥٧٩ .

(٦) النويري: نهاية الأرب جـ٣٢ ص٢١٧، والمقريزي: السلوك جـ٢ قسم١ ص١٤٢ .

*** وخلاصة القول:**

إنَّ التحول إلى الإسلام في مصر والشام في عهد الدولة المملوكية كان تحولاً في الأعم الأغلب اختياريًا وطوعيًا دون إكراه أو جبر، وهناك حالات معدودة على أصابع اليد الواحدة ألزم فيها بعض السلاطين بعض الذميين بالإسلام، كما أن بعض أهل الذمة أسلموا طمعًا في بعض المناصب، وقد حَسُنَ إسلام الكَثْرَة الكثيرة من هؤلاء، ودلت سيرتهم على حُسْن إسلامهم، وحدث - أيضًا- أن ادَّعَى بعض ذميين آخرين الإسلام، وادعو الردة عنه في بعض الحالات المفتعلة التي يهدف أصحابها من وراءها إلى إحداث اللغط حول العقيدة الإسلامية، وإثارة الشبهات حولها، وكان للسلطة المملوكية موقف حكيم في التعامل مع هؤلاء المُدَّعِين للإسلام وللردة والراغبين في الموت، حيث قامت الدولة المملوكية بالتحقق أولاً من مواقفهم، ثم تركت لهم وقتًا كافيًا للعودة عنها، وحاولت التعرف من بعضهم على أسباب مواقفهم، وحققت في النهاية مطلب هؤلاء ومقصدهم من وراء هذه المواقف المفتعلة. ولم تحدث حالات ردة لمسلمين خُلَّص دينهم الأصلي الإسلام، وما ورد في بعض المصادر عن حالات خاصة بعض المماليك أو المترجمين أمكن الوصول إلى أن هؤلاء أيضًا لم يكونوا مسلمين في الأساس، بل أسلموا وتحولوا إلى عقيدة الإسلام عن بعض العقائد الأخرى.

***

قائمة المصادر والمراجع *

أولاً: المخطوطات:

١- **الفيومي (أحمد بن محمد ت٧٢٢هـ/ ١٣٧٠م):** نثر الجمان في تراجم الأعيان. القطعة الثانية من سنة ٦٢٣ - ٦٨٩هـ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة برقم ٥٣٩ تاريخ.

ثانيًا: الوثائق:

٢- **وثيقة وقف من وثائق دير سانت كاترين رقم ٢٥٩** . نشرها قاسم عبده قاسم في كتابه: أهل الذمة في مصر العصور الوسطى، دراسة وثائقية، دار المعارف. ملحق ٢ .

ثالثًا: المصادر:

٣- **ابن الأثير (أبو الحسن علي بن محمد ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٠م):** الكامل في التاريخ، دار صادر - بيروت - لبنان .

٤- **ابن الأخوة (محمد بن محمد ت ٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م):** معالم القربة في أحكام الحسبة. تصحيح: روبن ليوي، مكتبة المتنبي - القاهرة .

٥- **الإدفوي (كمال الدين جعفر بن ثعلب ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م):** الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق: سعد محمد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م.

٦- **ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم ت٦٦٨هـ/١٢٦٩م):** عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الثقافة، بيروت، لبنان .

٧- **ابن إياس (محمد بن أحمد ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م):** بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٨- **ابن أيبك (أبو بكر بن عبد الله ت٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م):** كنز الدرر وجامع الغرر جـ٨، تحقيق: هارمان، وجـ٩ تحقيق: روبرت رويمر، المعهد الألماني للآثار بالقاهرة .

(*) رتبت المصادر والمراجع ترتيبًا (ألف بائي) بحسب شهرة المؤلف، مع عدم اعتبار الزوائد مثل: ابن وآل وأب وغيرها .

٩- **ابن بطوطة (محمد بن محمد ت ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م):** رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، لبنان ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م .

* **البقاعي (إبراهيم بن حسن ت ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م):**

١٠- عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران، تحقيق: حسن حبشي، مطبعة دارالكتب ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١١- عنوان العنوان: أو المعجم الصغير، تحقيق: حسن حبشي، مطبعة دار الكتب ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م .

* **بيبرس المنصوري (ت٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م):**

١٢- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، جـ٩، تحقيق: زبيدة محمد عطا، طبعة المملكة العربية السعودية .

١٣- التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق: عبدالحميد حمدان، الدار المصرية اللبنانية.

* **ابن تغري بردي: (جمال الدين يوسف ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م):**

١٤- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. وطبعة أخرى بتعليقات محمد رمزي، دار الكتب المصرية .

١٥- حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

١٦- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق عدة محققين، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

١٧- **ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم ت ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م):** الصارم المسلول على شاتم الرسول، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ١٤٠٠هـ .

١٨- **ابن الجزري (محمد بن إبراهيم ت ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م):** تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت ، لبنان .

١٩- **ابن جماعة (بدر الدين محمد بن إبراهيم ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م):** تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، تحقيق: فؤاد عبدالمنعم أحمد، رئاسة المحاكم الشرعية بقطر ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

٢٠- **ابن حبيب (الحسن بن عمر ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م):** تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد محمد أمين، دار الكتب المصرية ١٩٧٦م .

* **ابن حجر (أحمد بن علي ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م):**

٢١- إنباء الغمر بأنباء العُمر، تحقيق: حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م .

٢٢- رفع الإصر عن قضاة مصر، ملحق بكتاب الولاة والقضاة للكندي، تهذيب وتصحيح رفن كست، مؤسسة قرطبة .

٢٣- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، أم القرى للطباعة والنشر، القاهرة.

٢٤- **ابن إلحمصي (أحمد بن محمد ت ٩٣٤هـ/ ١٥٢٧م):** حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان.

* **السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ/ ١٣٩٦م):**

٢٥- وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق: بشار عواد وعصام الحرستاني وأحمد الخطيمي، مؤسسة الرسالة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م .

٢٦- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.

٢٧- التبر المسبوك في ذيل السلوك جـ١ وجـ٢، تحقيق: نجوى مصطفى، ولبيبة إبراهيم، مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م . ونسخة أخرى كاملة طبعة المكتبة الأزهرية، مصر .

٢٨- الذيل على رفع الإصر، تحقيق: جودة هلال ومحمد صبح، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة .

٢٩- **السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م):** حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م .

٣٠- **ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م):** عيون التواريخ، جـ٢٠، وجـ٢١، تحقيق: نبيلة عبد المنعم وفيصل السامر، منشورات دار الثقافة بالعراق .

٣١- **ابن شداد (عز الدين محمد بن علي ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م):** تاريخ الملك الظاهر، تحقيق: أحمد حطيط، نشر فرانز شتاير ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

٣٢- **الصفدي (صلاح الدين خليل ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م):** الوافي بالوفيات ، تحقيق عدة محققين، فرانز شتاير شتوتكارت.

٣٣- **ابن الصيرفي (علي بن داود ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م):** نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق: حسن حبشي، دار الكتب المصرية.

٣٤- **طافور (ت٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م):** رحلة طافور، ترجمة وتعليق حسن حبشي، دار المعارف بمصر ١٩٦٨م .

٣٥- **ابن طولون (محمد بن علي الصالحي ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م):** مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

٣٦- **ابن عبد الظاهر (محيي الدين بن عبد الظاهر ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م):** الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبدالعزيز الخويطر، الرياض.

٣٧- **عثمان النابلسي (عثمان بن إبراهيم النابلسي ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م):** لمع القوانين المُضيّة في دواوين الديار المصرية، مكتبة الثقافة الدينية، مصر.

٣٨- **ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحي ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م):** شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر، بيروت، لبنان .

٣٩- **العمري (شهاب الدين بن فضل الله ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م):** مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، جـ٩ تحقيق: عصام عقلة، ويوسف ياسين، مركز زايد للتراث والتاريخ .

٤٠- **العيني (بدر الدين محمود ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م):** عقد الجمان في تاريخ الزمان (١-٤)، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٤١- **ابن الفرات (محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م):** تاريخ ابن الفرات، جـ٨، تحقيق: قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، وجـ٩، تحقيق: قسطنطين زريق .

٤٢- **ابن قاضي شهبة (أبو بكر أحمد ت ٨٥١هـ/ ١٤٤٨م):** تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق: عدنان درويش، دمشق ١٩٧٧م.

٤٣- **القلقشندي (أبو العباس بن علي ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م):** صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م .

٤٤- **ابن كثير (إسماعيل بن كثير ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م):** البداية والنهاية، دار الغد العربي، القاهرة ١٤١١هـ/ ١٩٩١م .

٤٥- **مجهول:** حوليات دمشقية، نشر وتحقيق: حسن حبشي، مكتبة الأنجلو المصرية .

* **المقريزي (أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م):**

٤٦- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب المصرية .

٤٧- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة بولاق .

٤٨- المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب، بيروت، لبنان .

٤٩- درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م .

٥٠- **ابن المقفع** (وغيره) (سايروس بن المقفع عاش في أيام المعز لدين الله ٣٤١-٣٦٥هـ/ ٩٥٢-٩٧٥م): تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، نشر د. أنطون خاطر ود. أزولد بورمستر وغيرهما، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٧٠م، مجلد٢ جـ٣، ومجلد٣ جـ٣ .

٥١- **النعيمي (عبد القادر محمد ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م):** الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: جعفر الحسني، مكتبة ابن الجوزي بالدمام.

٥٢- **النويري (أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م):** نهاية الأرب في فنون الآداب ، تحقيق عدة محققين، الهيئة المصرية للكتاب، وأجزاء طبعة دار الكتب المصرية .

٥٣- **ياقوت (ياقوت بن عبد الله الحموي ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م):** معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان.

رابعًا: المراجع العربية:

٥٤- **أحمد دراج:** المماليك والفرنج في ق٩هـ - ١٥م. دار الفكر العربي ١٩٦١م.

٥٥- **أرنولد:** الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، النهضة المصرية .

٥٦- **ترتون:** أهل الذمة في الإسلام ترجمة وتعليق حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، تاريخ المصريين، عدد ٧٠ .

٥٧- **حسين مؤنس:** معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، مصر.

٥٨- **خديجة الطناشي:** العلاقات السياسية بين القوى الإسلامية والمسيحية في الحبشة خلال النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي. الجماهيرية العربية الليبية .

٥٩- **سعيد عبد الفتاح عاشور:** المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية.

٦٠- **سيدة كاشف:** مصر الإسلامية وأهل الذمة، تاريخ المصريين العدد ٥٧ .

*** قاسم عبده قاسم:**

٦١- أهل الذمة في مصر العصور الوسطى، دراسة وثائقية، دار المعارف.

٦٢- اليهود في مصر من الفتح العربي حتى الغزو العثماني، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ١٩٨٧م .

٦٣- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف ١٩٨٣م.

٦٤- **يوسف القرضاوي:** غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، مكتبة وهبة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م .

خامسًا: المصادر والمراجع الأجنبية:

65- **Camon Pietro Casola's:** Pilogrimage to Jerusalem in th year 1499, by M. Margaret Newett. B. A. Manchester at the University Press 1907.

66- **Lane - Poole:** A Hoistory of Egypt in the Middle Ages. London 1901.

67- **Tamer el - Leithy:** Coptic Culture and Conversion in Medieval Cairo 1293-1524 A.D, Adissertation Presented to the Faculty of Princeton University. January 2005.

***